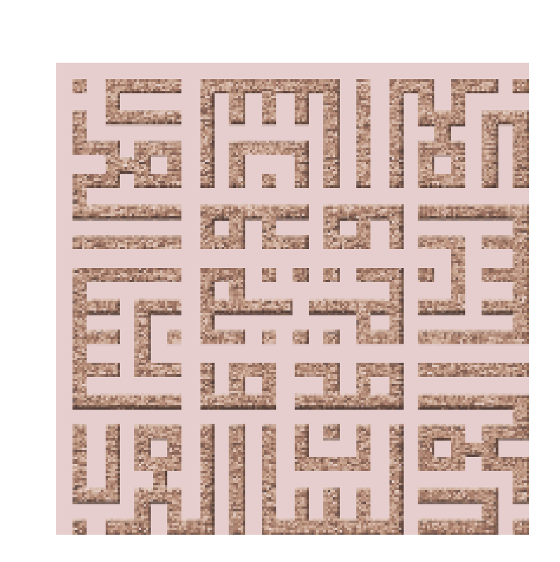
الشعر العربي

في

القرن الأول الهجري

الدكتور محمد مصطفى هدارة



الشعر العربي

في

القرن الأول الهجري

الشعر العربي
في
القرن الأول الهجري

الدكتور محمد مصطفى هدارة
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في سلسلة محاضراتي عن تاريخ الأدب العربي عبر العصور يسرني أن أقدّم الجزء الخاص بتاريخ الأدب في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي . وقد اتخذت فيه منهجاً يقوم على التركيز والشمول وعرض القضايا الفنية من حيث المضمون والشكل ، دون الاهتمام بجزئيات أو شخصيات بعينها . ودراسة القضايا تقوم على تحليل النصوص والغوص في أعماقها وفي عقول الشعراء الذين أبدعوا هذا النتاج الشعري الرائع الذي زخر به العصر الأموي ، والذي كان منطلقاً للتجديد والتطور اللذين أصابا الشعر في القرن الثاني الهجري .

وقد حرصت على بيان الأثر الذي أحدثه بزوغ الإسلام في الشعر العربي ومناقشة دعوى ضعف الشعر العربي بعد الإسلام . كذلك حرصت على أن أضع بين أيدي الدارسين قدراً من النصوص يمثل شتى الاتجاهات الموضوعية والفنية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي . وقد حاولت قدر الإمكان أن أجنّب هذه الدراسة التمهيدات المطولة في التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع إذ زخرت بمثل هذه التمهيدات الكتب المدرسية التي تجري على نسق بعينه .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يكون معيناً لطلابنا في الجامعة على تعمق الظواهر وتذوق الأشعار ، واستجلاء صورة مشرقة لصفحة من تاريخ أدبنا العربي ، وبالله التوفيق .

محمد مصطفى هدارة

الشعر في العصر الإسلامي

الإسلام والشعر :

ورد ذكر الشعر في القرآن الكريم في عدة مواضع تنفي أن يكون التنزيل الكريم شعراً، أو أن يكون الرسول شاعراً . وليس في ذلك طعن على الشعر ، بل هو إقرار لواقع لا شك فيه ، فالقرآن صورة بيانية فريدة تبعد كل البعد أن تكون شعراً أو سجعاً كسجع الكهان ، وهما لونان معروفان عند العرب في الجاهلية . وكان المشركون من العرب يريدون التهوين من شأن معجزة الرسول فيصفون القرآن بالشعر ، ولهذا جاءت الآيات في نفي أن يكون القرآن شعراً منسوبة إلى مشركي العرب كقوله تعالى ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ وقوله ﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ ، والآيات في هذا المعنى كلها مكية للدلالة على نزولها في وقت المعارضة الشديدة من جانب قريش .

أما قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ ، فهو من الآيات المدنية ، على الرغم من أن بقية آيات السورة نزلت في مكة . والقصد منها خاص وعام ، أما الخاص فهو وصم شعراء الكفار الذين

أخذوا يناصبون الإسلام والرسول والعداء ، وأما المقصد العام فهم الشعراء الذين لا يلتزمون بالقواعد الأخلاقية للإسلام ، فيكتبون في الهجاء وما يدخل تحته من الخوض في الأعراض والطعن في الأنساب ، والغزل وما يتضمنه من التشبيب الفاحش ، والمدح إذا كان موجهاً لمن لا يستحقه ، والفخر إذا كان قائماً على ادعاء كاذب .

أما الغواة الذين تشير إليهم الآيات والذين يتبعون الشعراء غير الملتزمين بالقواعد الأخلاقية للإسلام فهم الأعراب الذين يجتمعون إلى شعراء قريش المشركين ليستمعوا إلى أشعارهم في هجاء الرسول ورسالته . فإذا عممنا معنى الآيات كان الغواة كل المسلمين الذين يشغلون أوقاتهم بالتلهي بشعر لا يحض على مكارم الأخلاق .

وأما الشعزاء الذين استثنتهم الآيات فالمقصود بهم شعراء المسلمين خاصة الذين دافعوا عن الرسول والدعوة ، والشعراء عامة الذين يكتبون في الحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة ، وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق منه فلا خير فيه)[1] .

الشعر في عهد الرسول :

موقف الرسول صلوات الله عليه من الشعر هو الموقف الإسلامي المثالي ، وكان يرى أن يرد شعراء المسلمين عدوان شعراء الكفار ويقول إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، مع أن الهجاء مذموم في الإسلام ، ولكن هجاء المسلمين للمشركين كان على أساس قوله تعالى ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾ .

وكان حسان بن ثابت الشاعر الإسلامي الأول يرد على القرشيين بأسلحتهم في الشعر ، ويتردد في هجومه بين الهجاء الهادىء كقصيدته الهمزية

---

(١) العمدة ١ : ١٤ .

التي هجا فيها أبا سفيان (المغيرة بن الحارث ٣ هـ / ٦٢٢ م) . وبين الهجاء الفاحش كهجائه للوليد بن المغيرة (١ هـ / ٦٢٢ م) . ولم يكن حسان وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء ، بل وقف إلى جانبه عدد كبير من الذين صح إسلامهم فكانوا يذودون عن الإسلام بأشعارهم ويذيعون مدائحهم في الرسول صلوات الله عليه ، وينشرون لواء دعوته مثل كعب بن مالك (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) وعبد الله بن رواحة (٨ هـ / ٦٢٩ م) وعدى بن حاتم الطائي (٦٨ هـ / ٦٨٧ م) وعباس بن مرداس السلمى (نحو ١٨ هـ / ٦٤١ م) وغيرهم . وكان حسان وكعب بن مالك يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع إلى الشعر ويتذوقه ويثيب عليه ويستجيب له ، وكان الشعراء الذين أسلموا يمثلون تياراً إسلامياً قومياً لا ينبغي التهوين من شأنه إذا قورن بالشعر الجاهلي ، ذلك أن معاني الإسلام قد تطرقت إلى هذا الشعر في موضوعاته وألفاظه ، فأصبح يغاير الصورة الجاهلية التي عرف بها .

وأول ما نلحظه في ذلك أن الجزالة البدوية القديمة التي كانت صفة غالبة على الشعر الجاهلي كادت تذوي تماماً لتحل محلها بساطة في الأسلوب ، وألفاظ رقيقة حضرية ، لأن الشعر انتقل من البادية إلى المدينة ، وأصبح حملة لوائه من القرشيين أو غيرهم من شعراء الحضر . ولعل هذا هو ما دفع الرواة واللغويين إلى المجاهرة بدعوى ضعف الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين إذ كانت الأشعار الجاهلية الجزلة البدوية تمثل عندهم النموذج الكامل للشعر العربي . كما أن الإسلام منع الهجاء إلا أن يكون دفاعاً عن الدين ، ومنع وصف الخمر والتشبيب الفاحش ومدح من لا يستحق .

ونرى الشعراء في عصر الرسول يتوجهون بمديحهم إليه ، ونلحظ في

مدائحهم تطوراً واضحاً من ناحية رقة اللفظ والاهتمام الرئيسي بالفكرة دون بهرجة الكلام وتزييفه ، مع التأثر بالمضمون الإسلامي الجديد ، كما نرى في مدح العباس بن عبد المطلب الذي يتحدث عن الرسول مذ كان نطفة حتى أشرقت بميلاده الأرض فيقول :

من قبلها طبت في الظلام وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسراً وأهلها الغرق
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف تحتها النطق

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاء بنورك الألق فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق[1] .

ونرى الشعراء المسلمين منذ عهد الرسول يتحدثون عن فضائل الإسلام ويشيدون بالمسلمين في وقائعهم ، ويفخرون بانتصارهم على أعدائهم . وقد تكون هذه الموضوعات محصورة ضيقة ، ولكنها تمثل في الواقع تطوراً جديداً في الشعر . وأهم ما نلاحظه في ذلك تراشق شعراء المسلمين والكفار بالنقائض فيما بينهم ، حتى لتعد هذه النقائض الأساس الأول الذي بنيت عليه نقائض جرير (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) والفرذق (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) والأخطل (٩١ هـ / ٧١٠ م) في العصر الأموي . ويكفي أن نرى ما أنتجته وقعة أحد (٣ هـ / ٦٢٤ م) وحدها من نقائض لندرك أن فناً شعرياً جديداً قد أخذ طريقه إلى الأدب العربي منذ عصر الرسول .

وكان من بين ما اهتم به شعراء الكفار - سوى مناقضتهم للمسلمين - هجاء من أسلم منهم ، ومحاولة رده إلى دين آبائه ، كما نرى في قول زوجة العباس بن مرداس حين بلغها خبر إسلامه :

---

(١) الاستيعاب ١ : ١٦١.

ألم ينـه عباس بن مرداس أنني ... رأيت الورى مخصوصة بالفجائع
أتاهم من الأنصار كل سميذع ... يمن القوم يحمي قومه في الوقائع
بكل شديد الوقع عضب يقوده ... إلى الموت هام المقربات البرائع
لعمري لئن تابعت دين محمد ... وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لبدلت تلك النفس ذلاً بعزة ... غداة اختلاف المرهفات القواطع
وقوم هم الرأس المقدم في الوغى ... وأهل الحجا فينا وأهل الدسائع
سيوفهم عز الذليل وخيلهم ... سهام الأعادي في الأمور الفظائع[1]

وكذلك في قول كعب بن زهير (٢٦ هـ / ٦٤٥ م) الذي وجهه إلى أخيه بجير بعد إسلامه :

ففارقت أسباب الهدى واتبعته ... على أي شيء ويب غيرك دلكا
على مذهب لم تلف أماً ولا أباً ... عليه ولم تعرف عليه أخاً لكا[2]

وفن شعري آخر ينبغي أن نشير إليه ، وجد بعد الإسلام في عصر الرسول وهو الشعر التعليمي الإسلامي ، وكان لأبي قيس صرمة بن أبي أنس اهتمام به ، فقد أوسع شعره لتعاليم الإسلام الجديدة يذيعها ليمحو بها ضلالات الجاهلية ومن ذلك قوله :

يقول أبو قيس وأصبح غادياً ... ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقى ... وأعراضكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدنهم ... وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم ... فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا[3]

ونرى مثل ذلك في شعر عبدة بن الطبيب بعد إسلامه إذ يقول :

أوصيكم بتقى الإله فإنه ... يعطي الرغائب من يشاء ويمنع

---

(١) انظر الأغاني ١٤ : ٣٠٦، ٣٠٧.
(٢) ديوان كعب بن زهير: ٣.
(٣) سيرة ابن هشام ١ : ٥١٠.

وببر والدكم وطاعة أمره ... إن الأبر من البنين الأطوع
واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم ... متنصحاً ذاك السمام المنقع
يزجي عقاربه ليبعث بينكم ... حرباً كما بعث العروق الأخدع[1]

وفن شعري ثالث نراه ازدهر في عصر الرسول صلوات الله عليه ، وهو الاعتذار عن الكفر ومعاداة المسلمين في أشعار الذين أسلموا وأقبلوا يمدحون الرسول . يقول في هذا المعنى عبد الله بن الزبعري (نحو ١٥ هـ / ٦٣٦ م) .

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمد لامني ... فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانة سرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من التي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة ... سهم ، وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الهوى ويقودني ... أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطىء هذه محروم[2]

ونجد شعراً في هذا المعنى لأسيد بن أبي إياس الذي أسلم عام الفتح ، ولأنس بن زنيم (نحو ٦٠ هـ / ٦٨٠ م) ولأبي سفيان بن الحارث (٢٠ هـ / ٦٤٤ م) وقصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير تأتي في مقدمة هذا الفن الاعتذاري الإسلامي .

وعبر الشعر في عصر الرسول عن وقائع وأحداث مختلفة ، فقد توسل زهير بن صرد بمدح الرسول ليعفو عن قومه ، واستصرخه عمر بن سالم الخزاعي في أرجوزة ليرد المسلمون عادية قريش على قومه ، وعاتبته ليلى بنت النضير بن الحارث (نحو ٢٠ هـ / ٦٤٠ م) على قتل أبيها .

وتغير أسلوب المنافرة الجاهلية فلم يعد تعداد مآثر جاهلية محضة يسوقها الجانبان المتنافران ، بل صارت مآثر جاهلية وبإزائها مآثر إسلامية . وكان

---

(١) المفضليات: ١٤٦.
(٢) الاستيعاب ١: ٣٥٦.

حسان بن ثابت شاعر الرسول يرد على شعراء الوفود الذين أتوا لمنافرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما أتى تميم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر (نحو ٤٥هـ/ ٦٦٥م) فأنشد قصيدة يفخر فيها بقومه على عادة الجاهليين، فأجابه حسان بقصيدة على وزن شعره ورويه تضمنت بعض المعاني الإسلامية الجديدة، يقول فيها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم	في نقل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم	لا يطبعون ولا يرديهم الطبع
أكرم بقوم رسول الله قائدهم	إذا تفرقت الأهواء والشيع[1]

وسجل الشعر في عهد الرسول بعض الغزوات التي قام بها في سبيل نشر الإسلام كأبيات العباس بن عبد المطلب التي يفخر فيها بثباته مع الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم حنين ويقول فيها :

ألا هل أتى عرسي مكري وموقفي	بوادي حنين والأسنة تشرع
وقولي إذا ما النفس جاشت لها قدى	وهام تدهدى والسواعد تقطع
وكيف رددت الخيل وهي مغيرة	بزوراء تعطي باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة	وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا[2]

وقد نزع الشعراء في رثاء الرسول صلوات الله عليه عند وفاته منزعاً جديداً بالحديث عن مآثر إسلامية خالصة وشمائل تختص بالدين لا بالدنيا .

وعلى الرغم من الثورة الكبرى التي أحدثها الإسلام في المجتمع الوثني في الجزيرة العربية ، فإن ما حدث من تطور في الشعر كان جزئياً ، لأن مثل هذه الثورة الفكرية تحتاج إلى وقت طويل حتى تستوعبها العقول وتتشربها النفوس ،

---

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢٣٨ .

(٢) العمدة ١ : ٢٣ والسبعة المشار إليهم في البيت الأخير هم أبو بكر وعمر وعلي والعباس والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث.

ولأن القصيدة العربية في الجاهلية ـ كما رأينا ـ كانت قد صار لها منهج تقليدي يعسر على الشعراء مخالفته والخروج عليه ، ولهذا نجد معظم أشعار حسان بن ثابت الإسلامية تجري على النهج التقليدي الجاهلي الذي يتعارض أحياناً مع الاتجاه الإسلامي . ففي قصيدته (عفت ذات الأصابع فالجواء) يبدأ ببكاء الأطلال والنسيب ثم يعرج على وصف الخمر . وفي قصيدته التي يفخر فيها بيوم بدر (تبلت فؤادك في المنام خريدة) مضى يتغزل في صدر القصيدة كالطبيعة الثابتة للشعر الجاهلي .

كذلك نجد كعب بن زهير في قصيدته (بانت سعاد) يبدؤها بنسيب يستغرق خمسة عشر بيتاً ، يتعرض فيه لبعض الصفات الحسية . وكل ذلك ينافي وجهة النظر الإسلامية ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أغضى عنها في هذه القصائد لإدراكه أن الشعراء لم يقصدوا إلى هذه المعاني بذاتها ، بل لكونها تقليداً لنهج فني متوارث . ولكننا في الوقت نفسه نجد المعاني الإسلامية المقتبسة من آيات القرآن الكريم تتسرب في أشعار المسلمين ، ولعل رثاء حسان بن ثابت لحمزة بن عبد المطلب (٣ هـ./ ٦٢٥ م) يكشف بوضوح عن ظهور المعاني الإسلامية فهو يقول :

فإن تذكروا قتلى وحمزة فيهم	قتيل ثوى لله وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزلة له	وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم	حميم معاً في جوفها وضريع[1]

الشعر في عهد الخلفاء الراشدين :

لم تكن المعاني الإسلامية قد تشربتها النفوس بعد ، ولهذا كانت حركة الردة في عهد أبي بكر محاولة لاسترداد سلطة القبيلة المسلوبة ، والتخلي عن فكرة الوحدة الدينية التي حلت محل الرابطة القبلية ، وقد وضح هذا في أشعار بعض المرتدين ، كما في شعر الحطيئة (جرول بن أوس نحو ٤٥ هـ / ٦٦٥ م) الذي ساءه أن تنتقل السلطة المركزية إلى أبي بكر (١٣ هـ / ٦٣٤ م) فقال :

---

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت.

فدى لبني ذبيان أمي وخالتي | عشية يحدى بالرماح أبو بكر
أبوا غير ضرب يحطم الهام وسطه | وطعن كأفواه المرقعة الحمر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة | وقوموا وإن كان القيام على الجمر
أطعنا رسول الله إذ كان صادقاً | فيا عجباً ما بال دين أبي بكر
أيورثنا بكراً إذا مات بعده | فتلك وبيت الله قاصمة الظهر[1]

وقليل من الشعراء هم الذين استجابوا لما أمر به الدين ونهى عنه ، حتى لقد كف بعضهم عن قول الشعر مغالاة في التأثم منه ، كما يقول بشار بن عدى الطائي :

تركت الشعر واستبدلت منه | كتاب الله ليس له شريك
وودعت المدامة والندامى | إذا داعى منادي الصبح ديك[2]

ويعلن حصين بن الحمام توبته عن إطاعة الجهل بعد إسلامه فيقول في إيقاع إسلامي جديد :

ويوم تسعر فيه الحروب | لبست إلى الروع سربالها
فلم يبق من ذاك إلا التقي | ونفس تعالج آمالها
أمور من الله فوق السماء | مقادير تنزل أنزالها
أعوذ بربي من المخزيات | يوم ترى النفس أعمالها
وخف الموازين بالكافرين | وزلزلت الأرض زلزالها[3]

ولكن الكثرة الغالبة من الشعراء ظلوا ينظمون في المعاني نفسها التي تعودوا عليها منذ الجاهلية ، أو التي تدعوهم إليها مشاعرهم الذاتية ، بغض النظر عن الاعتبارات الدينية ، فقد كان عبد الله بن أبي بكر (١١ هـ / ٦٣٢ م) شاعراً مشبوب العاطفة ، وله في زوجته عاتكة بنت زيد

---

(١) ديوان الحطيئة : ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
(٢) الإصابة : ترجمة بشار بن عدي .
(٣) الأغاني ١٤ : ١٥ .

(نحو ٤٠ هـ / ٦٦٠ م) أشعار كثيرة ، وكانت فائقة الجمال حتى شغلته عن المغازي ، فأمره أبوه بطلاقها فاستجاب له ، ولكنه ظل يتغنى بحنينه إليها .

وبينما نجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٣ هـ / ٦٤٤ م) ينهي حسان بن ثابت عن إنشاده هجاء الكفار لزوال دواعيه ، نرى النجاشي (قيس بن عمرو نحو ٤٠ هـ / ٦٦٠ م) يقذع في هجاء بني العجلان ، والحطيئة يعنف في هجائه للزبرقان بن بدر ، وبينما نجده يعزل أحد ولاته لذكره الخمر في شعره ، يجهر أبو محجن الثقفي (عمرو بن حبيب ٣٠ هـ / ٦٥٠ م) في شعره بتهالكه على الشراب ، ويشبب سحيم عبد بني الحسحاس (نحو ٤٠ هـ / ٦٦٠ م) بالنساء تشبيباً فاحشاً ، وكذلك الشأن بالنسبة لضابىء بن الحارث البرجمي (نحو ٣٠ هـ / ٦٥٠ م) الذي رمى أم قوم بكلبهم في هجاء فاحش ، وحاول اغتيال عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وقد حدث في عهد الخلفاء الراشدين بعض التطور في موضوعات الشعر ، دعت إليها ظروف الحياة الإسلامية ، فشعر الحماسة الجاهلية أصبح شعراً حماسياً إسلامياً بفضل حركة الفتوح التي اشترك فيها المجاهدون المسلمون . وقد سجل الشعراء وقائع المعارك الفاصلة ، ورثوا شهداءهم ، ووصفوا المعاقل والحصون والأفيال التي استخدمها الفرس في قتالهم ، والبيئات المختلفة التي حاربوا فيها ، وتحدثوا عما أصابهم من أمراض ، كذلك عبروا عن حنينهم الدائم إلى مرابع طفولتهم . ومعظم أشعار الفتوح مجهول قائلوها ، وتتميز بأنها مقطعات صغيرة ، كانت استجابة عاطفية سريعة لأصحابها ، ولهذا تخلو من التأنق اللفظي ، وتشيع فيها البساطة والبعد عن الإغراب . ويضمن الشاعر فيها عادة معنى إسلامياً يرتبط بفكرة الجهاد في سبيل الله ، كما نرى في قول النابغة الجعدي (قيس بن عبد الله نحو ٥٠ هـ / ٦٧٠ م) لامرأته حين جزعت بسبب ذهابه في فتوح فارس :

يا ابنة عمي كتاب الله أخرجني ... طوعاً وهل أمنعن الله ما فعلا
فإن رجعت فرب الناس يرجعني ... وإن لحقت بربي فابتغي بدلا

مـا كنت أعـرج أو أعمى فيعـذرني أوضار عامن ضني لم يستطع حولا[1]

وفي أحيـان أخـرى يغيب المعنى الإسـلامي ولا يبقى إلا الشعـر الحماسي الذي نعرف أنه إسلامي من الوقائـع والأحداث التي يتعـرض لها ، كـما نرى في قول بشر بن ربيعة الخثعمي في موقعة القادسية :

تـذكـر ـ هـداك الله ـ وقـع سيـوفنـا بـبـاب قـديس والمكـر عـسـير
عشيـة ود القـوم لـو أن بعضهـم يـعـار جنـاحـي طـائـر فـيـطير
إذا مـا فـرغنـا من قـراع كتيبـة دلـفنـا لأخـرى كـالجبـال تسـير
تـرى القـوم فيهـا واجمـين كـأنهم جمـال بـأحمـال لهـن زفـير[2]

ومما يتصل بشعـر الفتوح أيضـاً هذه الأشعـار التي كان يكتبهـا في الجزيـرة العربية آباء يشتاقون إلى أبنائهم الذين انطلقوا إلى الفتوح والجهاد ، كما نـرى في أبيـات أمية بن حـرثان بن الأسكـر (نحو ٢٠ هـ / ٦٤١ م) حـين هـاجـر ابنـه كلاب إلى حرب الفرس ، يقول فيها :

لمن شيخـان قـد نشـدا كـلابـاً كـتـاب الله إن حفظ الـكـتـابـا
أنـاديـه فـيـعـرض في إبـاء فـلا وأبي كـلاب مـا أصـابـا
وإنـك والـتمـاس الأجـر بـعـدي كبـاغـي المـاء يتبـع الســرابـا
تـركـت أبـاك مـرعـشـة يـداه وأمـك لا يـسـيـغ لهـا شـرابـاً
إذا نـعـب الحـمـام بـبـطن وج عـلى بيضـاتـه ذكـرا كـلابـا[3]

وكثرت مثل هذه الأشعار التي تعبر عن حنين الآباء والأمهات إلى أولادهم المجاهدين . كما نرى في أبيات المخبل السعدي (ربيع بن ربيعة) ، والبريق بن عيـاض الهـذلي (عيـاض بن خـويلد) ، وأبي خـراش الهـذلي (نـحـو ١٥ هـ / ٦٣٦ م) وغيرهم ، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ ينهى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة للجهاد براً بهم .

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ١٩٤.
(٢) الأغاني ١٥ ٢٤٣.
(٣) الإصابة: ترجمة أمية بن الأسكر.

وإلى جانب التطور الذي شهده الشعر الحماسي الجاهلي وتمثل في الفتوح الإسلامية بكل جوانبها ، حدث تطور آخر فيه أيام الخلفاء الراشدين حين بدأ يتحول إلى شعر سياسي يعبر عن الانقسام الذي شهدته الجماعة الإسلامية منذ مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقد كشف الأمويون عن عدائهم القديم للهاشميين ، وظن كل فريق أنه على حق ، وكان مقتل عثمان ذروة خلاف قديم وليس بدايته . وخطورة وقعه على الجماعة الإسلامية انتهاك قدسية الخلافة وشخص الخليفة ، وإلى هذه المعاني يشير حميد بن ثور في قوله :

إن الخلافة لما أظعنت ظعنت ... عن أهل يثرب إذ غير الهدى سلكوا
صارت إلى أهلها منهم ووارثها ... لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا
السافكي دمه ظلماً ومعصية ... أي دم ـ لا هدوا ـ من غيهم سفكوا
والهاتكي ستر ذي حق ومحرمة ... فأي ستر على أشياعهم هتكوا
والفاتحي باب قفل لا يزال به ... قتل بقتل إلى دهر ، ومعترك[1]

واندفع شعراء يغرون علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤٠ هـ / ٦٦٠ م) بتولي أمر المسلمين بعد مقتل عثمان ، كما اندفع آخرون يغرون معاوية (٦٠ هـ / ٦٨٠ م) ، كقول الحجاج بن خزيمة بن الصمة :

إن بني عمك عبد المطلب ... هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالبيت فثب ... وسر سير المحزئل المتلئب[2]

ثم تطور الخلاف في الرأي بين الأمويين والعلويين إلى صدام مسلح كان الشعر من بين وسائل القتال فيه ، وقد زخرت وقعة صفين (٣٧ هـ / ٦٥٧ م) وكل مراحل الصراع بأشعار حماسية ، وأشعار مدح وهجاء ونقائض متبادلة بين النجاشي شاعر علي بن أبي طالب وكعب بن جعيل (نحو ٥٥ هـ / ٦٧٥ م) شاعر معاوية . وأطلت العصبيات القبلية برأسها ، وانتفضت في نفوس الناس المعاني الجاهلية التي سبق أن نهى عنها الإسلام ، فنرى النجاشي مثلاً يهجو أهل

---

(١) ديوان حميد بن ثور: ١١٤.
(٢) الأخبار الطوال: ١٥٦.

الكوفة هجاء قبيحاً فاحشاً لتخاذلهم ، بينما نرى النابغة الجعدي في صفوف علي بصفين يهجو الأمويين بغير إفحاش فيقول :

قد علم المصران والعراق
أن علياً فحلها العتاق
أبيض جحجاح له رواق
وأمه غالى بها الصداق
أكرم من شد به نطاق
إن الألى جاروك لا أفاقوا
لهم سياق ولكم سياق
قد علمت ذلكم الرفاق
سقتم إلى نهج الهدى وساقوا
إلى التي ليس لها عراق
في ملة عادتها النفاق[1]

ولم يكن معاوية بن أبي سفيان وحده في صف المعادين لعلي بن أبي طالب ، بل كان فيهم أيضاً طلحة (٣٦ هـ/٦٥٦م) والزبير (٣٦ هـ/ ٦٥٦ م) اللذان وجدا تعضيداً قوياً من السيدة عائشة رضي الله عنها (٥٨ هـ/ ٦٧٨ م) . وقد ثارت حرب كلامية عنيفة بين الفريقين لم تسلم من آثارها السيدة عائشة نفسها ، وحين حدثت الحرب الفعلية في موقعه الجمل ، نسي الفريقان الرابطة الإسلامية التي تجمع بينهما ولم يستشعرا غير العداء المتبادل ، حتى إن قاتل محمد بن طلحة (٣٦ هـ/٦٥٦ م) سخر من شهرة قتيله بأنه زاهد متعبد حتى أطلق عليه لقب (السجاد) ولم يـر إلا عداءه لعلي بن أبي طالب فقال :

وأشعث سجاد بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم

---

(١) ديوان النابغة الجعدي: ١٩٢، ١٩٣.

على غير شيء غير أن ليس تابعاً عليا ومن لا يتبع الحق يندم
يذكرني حاميم والرمح شارع فهلا تلا حاميم قبل التقدم[1]

وكان مقتل علي بأيدي الخوارج مثار حزن الشيعة ، ذلك الحزن الذي صار فيا بعد سمة واضحة من سمات أشعارهم ، كما كان فخر الخوارج في أشعارهم لاعتقادهم بأنهم قد تقربوا بفعلتهم إلى الله .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٥٠ .

الشعر الأموي

الشعر السياسي والمذهبي :

على الرغم من تدوين الشعر في هذا العصر ، ظلت الرواية عاملاً أساسياً في حفظ الشعر ونشره ، وظلت له مكانته القديمة بوصفه وسيلة فعالة للتأثير في الناس باجتذابهم إلى فريق وتنفيرهم من آخر ، بل إن الشعر - مع نشأة الأحزاب السياسية في عصر صدر الإسلام - اكتسب قوة جديدة وأصبح يقوم بدور الدعاية القوية التي يمكن أن تؤثر في اتجاهات الرأي العام بالنسبة لما يقع من أحداث ، أو بالنسبة للبرامج السياسية للأحزاب التي قوى شأنها بعد استقرار الحكم لبني أمية ، فأصبح الحزب العلوي قوة كبيرة بإزاء الحزب الأموي، وأصبح الخوارج قوة ثالثة بإزاء الفريقين. وبعد مقتل الحسين بن علي (٦١ هـ/ ٦٨٠ م) تجمع القرشيون في حزب جديد بقيادة عبد الله بن الزبير (٧٣ هـ/٦٩٢ م) ليطالب بإقرار الخلافة فيهم . ومعظم هذه الأحزاب السياسية كانت تستند إلى نظرية تؤيد مطالبه ، حتى تحولت هذه النظريات السياسية إلى مذاهب يؤمن بها أصحابها ويدافعون عنها ، ويفندون حجج خصومهم في نقضها .

وكان الصراع بين علي ومعاوية صراعاً بين فرعين من قريش على زعامة المسلمين ، وكذلك كان الشأن في صراع الأمويين والزبيريين ، وقد تنبهت

القبائل الأخرى لهذه الحقيقة وحاولت اعتزال الفتنة كما نرى في شعر علي بن الغدير الغنوي إذ يقول :

من مبلغ قيس بن عيلان كلها — بما احتاز فيها أرض نجد وشامها
فلا تهلكنكم فتنة كل أهلها — كحيران في طخياء داج ظلامها
فشأن قريش والخصومة بينها — إذا اختصمت حتى يقوم إمامها
وخلوا قريشاً تقتتل إن ملكها — لها وعليها برها وأثامها
فإن وسعت أحلامها وسعت لها — وإن عجزت لم يدم إلا كلامها[1]

وقد أظهر الصراع بين المتحاربين وجود العصبيات القبلية القديمة ، فقد ناصرت القبائل اليمنية المقيمة في الشام بني أمية ، وناصرت القبائل الشمالية أعداءهم . وظهرت عصبية جديدة هي العصبية الإقليمية ، فقد أصبح الشام من نصيب بني أمية ، وأصبح العراق موطن العلويين ، وبسط الزبيريون نفوذهم على الجزيرة العربية . ونرى هذا اللون الجديد من العصبية في شعر كعب بن جعيل حين يقول : ..

أرى الشام تكره ملك العراق — وأهل العراق لها كارهونا
وكل لصاحبه مبغض — يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم — ودناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا على إمام لنا — فقلنا رضينا ابن هند رضينا[2]

وكان الحزب الأموي أضعف الأحزاب حجة في مطالبته بالخلافة ، فهو يستند إلى وراثته لعثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أقصاه معارضوه عن الخلافة بالقتل ، وهذا ما أبانه معاوية نفسه في شعر له يقول فيه :

أتاني أمر فيه للناس غمة — وفيه بكاء للعيون طويل
مصاب أمير المؤمنين وهذه — تكاد لها صم الجبال تزول
تبوالت عليه بالمدينة عصبة — فريقان : منهم قاتل وخذول

---

(١) نقائض جرير والأخطل: ٢٣ .
(٢) وقعة صفين: ٦٣ .

سألحقها حرباً عواناً ملحة — وإني بها من عامنا لكفيل

ولا يؤلف هذا السبب وحده أساساً نظرياً مهماً في المطالبة بالخلافة ، ولهذا نجد الشعراء الذين روجوا لحق بني أمية لا يستندون إلا إلى معان عامة من معاني المديح مثل شرف قبيلتهم منذ الجاهلية ، وقوتهم ، وحسن تدبيرهم ، وأن انتصارهم على أعدائهم يشير إلى تفضيل الله لهم . ونجد مثل هذه المعاني تتكرر عند شعرائهم من أمثال الأخطل وكعب بن جعيل ، ومسكين الدارمي (٨٩/٧٠٨ م) ، وعدى بن الرقاع (نحو ٩٥ هـ/٧١٤ م) ، والمتوكل الليثي (نحو ٨٥ هـ/٧٠٤ م) ، وأبي العباس الأعمى (نحو ١٠٠ هـ/ ٨١٧ م) ، والنابغة الشيباني (عبد الله بن المخارق ١٢٥/٧٤٣ م) . يقول الأخطل :

تمت جدودهم والله فضلهم — وجد قوم سواهم خامل نكد

ويوم صفين والأبصار خاشعة — أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

على الألى قتلوا عثمان مظلمة — لم ينههم نشد عنه وقد نشدوا

فثم قرت عيون الثائرين به — وأدركوا كل تبل عنده قود

فلم تزل فيلق خضراء تحطمهم — تنعي ابن عفان حتى أفرخ الصيد

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم — بيت إذا عدت الأحساب والعدد[1]

ولكن شعراء بني أمية يعوضون ضعف نظريتهم السياسية بالإكثار من هجاء أعدائهم ، ومحاولة نقض آرائهم ، وبترويج تأييدهم لكل ما قام به الأمويون ، وكان موضع معارضة أعدائهم ، مثل فكرة الوراثة في الخلافة ، ومقتل الحسين ، وحرق الكعبة وضربها بالمجانيق في حرب ابن الزبير . يقول عدى بن الرقاع في انتصار بني أمية على مصعب بن الزبير (٧١ هـ/٦٩٠ م) :

لعمري لقد أصحرت خيلنا — بأكناف دجلة للمصعب

إذا ما منافق أهل العراق — عوتب ثمت لم يعتب

---

(١) ديوان الأخطل ٢: ٤٤٥، ٤٤٦ بتحقيق فخر الدين قباوة ـ بيروت ١٩٧٩م.

دلفنا إليه بذي تدرأ قليل التفقد للغيب

يهزون كل طويل القناة ملتئم النصل والثعلب

كأن دعاهم إذا ما غدوا ضجيج قطا بلد مخصب

فقدمنا واضح وجهه كريم الضرائب والمنصب

أعين بنا ونصرنا به ومن ينصر الله لم يغلب[1]

ويقول أبو عطاء السندي (بعد ١٨٠ هـ/٧٩٦ م) في نقض دليل الهاشميين جميعاً على حقهم في الخلافة :

بني هاشم عودوا إلى نخلاتكم فقد قام سعر التمر صاعاً بدرهم

فإن قلتم رهط النبي وقومه فإن النصارى رهط عيسى بن مريم[2]

ولم يكن الحزب الزبيري في موقفه من الخلافة بأقوى كثيراً من موقف الأمويين ، فلم يكن يمثل مذهباً بل فكرة سياسية قائمة على العصبية القبلية ، فهم يرون ضرورة أن تكون الخلافة في قريش ، وأن تكون الحجاز مركز الحكم ، ويرفضون فكرة وراثة العرش التي تولى على أساسها يزيد بن معاوية (٦٤ هـ/٦٨٣ م) الخلافة . وقد استغل عبد الله بن الزبير مقتل الحسين بن علي فأظهر البيعة لنفسه بوصفه ممثلاً لأبناء الصحابة من سادة قريش . وسجل الشعر الأموي أحداث الصراع العنيف بين الأمويين والزبيريين بكل مراحله ووقائعه والذي استمر نحو تسع سنوات .

وكان شعراء بني أمية يتناولون سقطات ابن الزبير فيجسمونها في أشعارهم كما فعلوا عند قتله أخاه عمراً (٦٠ هـ/ ٦٨٠ م) ، إذ مثلوه في صورة وحشية ،يقول عبد الله بن الزبير الأسدي (نحو ٧٥ هـ/٦٩٥ م) :

أيا راكباً إما عرضت فبلغن كبير بني العوام إن قيل من تعني

ستعلم إن جالت بك الحرب جولة إذا فوق البرامون أسهم من تغني

(١) تاريخ الطبري: أحداث سنة ٧١ هـ.

(٢) الشعر والشعراء: ٧٤٦.

فأصبحت الأرحام حين وليتها بكفيك أكراشاً تجر على دمن
عقدتم لعمرو عقدة وغدرتم بأبيض كالمصباح في ليلة الدجن
وكبلته حولاً يجود بنفسه تنوء به في ساقه حلق اللبن
فما قال عمرو إذ يجود بنفسه لضاربه - حتى قضي نحبه - دعني

ثم يقول بعد أبيات :

قتلتم أخاكم بالسياط سفاهة فيالك للرأي المضلل والأفن
فلو أنكم أجهزتم إذ قتلتم ولكن قتلتم بالسياط وبالسجن
وإني لأرجو أن أرى فيك ما ترى به من عقاب الله ما دونه يغني
قطعت من الأرحام ما كان واشجاً على الشيب واتبعت المخافة بالأمن[1]

وسخروا من بخله وادعائه التقشف والزهادة ، وأذاعوا في الناس أخبار هزائمه ، وعمقوا فيهم الشعور بعدم قدرته على القيام بأمر المسلمين ، كما في قول أعشى ربيعة (نحو ١٠٠ هـ/٧١٨ م) الذي يستثير الأمويين للقضاء المبرم على الزبيريين :

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم أمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهض بيمنك فافتتح أقفالها[2]

وكان شعراء الزبيريين يؤكدون في أشعارهم تقوى عبد الله بن الزبير ، ومكانته من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحملون على بني أمية لجبروتهم . وكان عبيد الله بن قيس الرقيات (نحو ٨٥ هـ/٧٠٤ م) الصوت القوي المعبر عن سياسة الزبيريين ، ولكن معانيه لا تخرج عن الانتصار لقريش ، والتفجع على ما أصابها من تفرق ، والتهديد بالعداء المسلح ضد بني أمية . وقد بلغت

---

(١) انظر الأغاني ١٤: ٢٣٨، ٢٣٩.
(٢) الأغاني ١٨: ١٣٤.

ثورته على بني أمية قمتها بعد وقعة الحرة (٦٣ هـ/٦٨٢ م) التي قتل فيها الأمويون عدداً كبيراً من أهل المدينة وفيهم ثمانون من أصحاب رسول الله ، يقول في تلك الوقعة :

إن الحوادث بالمدينة قد ... أوجعنني وقرعن مروتيه
ينعى بنو عبد وإخوتهم ... حل الهلاك على أقاربيه
ونعي أسامه لي وإخوته ... فظللت مستكاً مسامعيه
تبكي لهم أسماء معولة ... وتقول ليلى وارزيتيه
والله أبرح في مقدمة ... أهدي الجيوش على شكتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم ... وأسوق نسوتهم بنسوتيه[1]

ويتميز الشعر السياسي الزبيري بوجود العاطفة المتحمسة سواء في الانتصار لقريش أم التهجم على بني أمية ، وهو يمثل الارستقراطية العربية برصانته وأناقة التعبير فيه ، واهتمام الشعراء بجزالة اللفظ والصياغة ، كما تميز بهذا اللون من الغزل الهجائي الذي اصطنعه عبيد الله بن قيس الرقيات لهجاء الأمويين عن طريق التغزل الفاضح بنسائهم .

أما الحزب العلوي فقد استند إلى حق علي بن أبي طالب ـ وأولاده من بعده ـ في الخلافة إرثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وساق العلويون أحاديث في هذا المعنى . ثم كان فضل على تأكيداً لحق أولاده في الخلافة ، وقد وضح ذلك في رثاء أبي الأسود الدؤلي (٦٩ هـ/٦٨٨ م) لعلي إذ جاء في آخر أبياته تأكيد انتقال الخلافة إلى الحسن بن علي :

فلا تشمت معاوية بن صخر ... فإن بقية الخلفاء فينا
وأجمعنا الإمارة عن تراض ... إلى ابن نبينا وأبي أخينا
ولا نعطي زمام الأمر فينا ... سواه الدهر آخر ما بقينا[2]

---

(١) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ٩٨، ٩٩.
(٢) الأغاني ١١ ١٧

ومات الحسن (٤٠ هـ/ ٦٦٩ م) ميتة غامضة فتحت بعد مقتل علي بابا جديداً للرثاء العاطفي الحار في شعر الشيعة، كما نتمثل في شعر الذين رثوه من أمثال النجاشي (نحو ٤٠ هـ/٦٦٠ م) ، والمفضل المطلبي ، وسليمان بن قتة ، وأخيه محمد بن الحنفية (٨١ هـ/٧٠٠ م) الذي أشار إلى شكه في أن يكون الحسن قد مات مسموماً، يقول :

أأدهن رأسي أم تطيب مجالسي	وخدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه	وقد ضمن الأحشاء لهيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة	وما اخضر في دوح الحجاز قضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطه	الا كل من تحت التراب غريب[1]

ثم أصبح الحسين بن علي زعيماً للشيعة ، فلم يلبث طويلاً حتى قتل ، ومعه بعض أهله وخلصائه في كربلاء (٦١ هـ/٦٨٠ م) على أيدي عملاء بني أمية ، فأضاف ذلك إلى شعر الشيعة عنصراً مأساوياً جديداً ، أخذ يتعمق بسقوط زعماء آخرين بعد ذلك مثل زيد بن علي بن الحسين (١٢٢ هـ/٧٤٠ م) ، ويحيى بن زيد (١٢٥ هـ/٧٤٣ م) .

وأحس الشيعة بعد مقتل الحسين عقدة الذنب وتأنيب الضمير لتقاعسهم عن حمايته ، وقد مهد ذلك لقيام حركة التوابين التي قادها سليمان بن صرد (٦٥ هـ/٦٨٤١ م) وانعكست آثارها في شعر الشيعة .

ثم انقسم الشيعة إلى فرق كثيرة كان من بينها الكيسانية (نسبة إلى مولى اسمه كيسان وقيل إنه المختار الثقفي نفسه) التي تأثرت ببعض الأفكار السبئية الغالية . وقد اجتذبت هذه الفرقة بأفكارها المتطرفة في الحلول والتناسخ والرجعة والعلم بالباطن والغيب كثيراً من الموالي الفرس، بحكم تأثرهم بالمعتقدات الفارسية القديمة . وزاد عليها المختار الثقفي (٦٧ هـ/٦٨٧ م) شعوذات ليظهر في صورة المتنبئين .

---

(١) مروج الذهب: ٣٠٤

وكان السبئية أتباع عبد الله بن سبأ (نحو ٤٠ هـ/٦٦٠ م) يزعمون أن علياً لم يقتل ، ولكنه صعد إلى السماء ، وأنه في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق سوطه، ويهذا هجاهم أعشى همدان (عبد الرحمن بن عبد الله ٨٣ هـ/٧٠٢ م) ، وهجا أتباع المختار الذي اتخذ كرسياً غشاه بالديباج ، وادعى أنه من ذخائر علي بن أبي طالب ، وأنه يجب أن يكون بالنسبة لأتباعه بمنزلة التابوت في بني إسرائيل . وكان يرسل حمائم بيضا على جيوشه مدعياً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء لنصرته ، يقول أعشى همدان نابذاً هذه الضلالات ، مؤكداً الإيمان بما أنزله القرآن وما سنه الرسول :

شهدت عليكم أنكم سبئية ... وإني بكم يا شرطة الكفر عارف
وأقسم ما كرسيكم بسكينة ... وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وإن لبس التابوت فتنا وإن سمت ... حمام حواليه وفيكم زخارف
وإني امرؤ أحببت آل محمد ... وآثرت وحياً ضمنته المصاحف[1]

وكان كثير بن عبد الرحمن (١٠٥ هـ/٧٢٣ م) شاعر الكيسانية الذي ينشر دعوتها ويوضح أفكارها التي من بينها ادعاء أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه سيعود ليملأ الدنيا عدلاً ، يقول كثير :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء[2]

ويؤكد كثير في أشعاره أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر، ويغضب لسب الأمويين علياً على المنابر في المساجد ، وإن كان لا يجد حرجاً في مدح الأمويين مداراة لهم ، وتطبيقاً لمبدأ التقية الذي يؤمن به الشيعة .

ويمثل الكميت بن زيد الأسدي (١٢٦ هـ/٧٤٤ م) بشعره فرقة الزيدية

---

(١) الحيوان ٢ : ٢٦١ .

(٢) الأغاني ٩: ١٤ .

الشيعية وإمامها هو زيد بن علي بن الحسين . ولم يكن شعر الكميت في مدحه إلا شعراً مذهبياً يتضمن أصول العقيدة الزيدية ، ويستخدم الشاعر في شرحها الأدلة المنطقية التي تبررها ، وأسباب مطالبتهم بالخلافة دون الأمويين الذين اغتصبوا الخلافة ظلماً ، يقول :

وجدنا لكم في آل حاميم آية ... تأولها منا تقي ومعرب
وفي غيرها آيا وآيا تتابعت ... لكم نصب فيها لذي الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين تركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً ... سفاهاً وحق الهاشميين أوجب[1]

فالكميت يناقش الأمويين في الأساس الذي بنوا عليه مطالبتهم بالخلافة ، وينفى حقهم في وراثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنهم ليسوا أقرباءه ، وأن الهاشميين وحدهم لهم هذا الحق ، بدليل آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ .

وكان الكميت يضمن شعره شروط الزيدية في الإمام كأن يكون من أبناء فاطمة ، وأن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخياً . ولا شك أنه استفاد بصور الاحتجاج العقلي في عصره في حديثه عن الزيدية ، حتى ليعد شعره فيها وثيقة تاريخية تعرفنا أصول هذا المذهب وأهم مصطلحاته .

وبعض فرق الشيعة التي تفرعت عن الزيدية أو الكيسانية أو الإمامية تغالي في آرائها متأثرة بالعقائد الأجنبية المنحرفة حتى لتصل إلى حد الكفر الصريح مثل فرقة المنصورية المنسوبة إلى أبي منصور العجلي ، وكانت تكفر بالقيامة والجنة والنار ، وتستخدم الخنق غيلة للقضاء على أعدائها وكذلك كانت المغيرية أتباع المغيرة بن سعد العجلي الأعمى تلجأ إلى اغتيال أعدائها ، وإلى هذا يشير أعشى همدان في قوله :

إذا سرت في عجل فسر في صحابة ... وكندة فأحذرها حذارك للخسف

---

(١) الهاشميات: ٣٧.

وفي شيعـة الأعمى خنـاق وغيـلة وقشب وإعمـال لجنـدلـة القـذف[1]

وشعـر الشيعـة بفـرقهـا المختلفـة تسجيـل أمين لاتجاهـاتهم السيـاسيـة والمـذهبيـة ، يتضمن آراءهم في أئمتهم ، وفي نـظام الحكم القـائم ، وجـدالهم لإثبات حقهم في الخلافة الإسلامية ، وهو جدال عقلي أحيـاناً ، عـاطفي أحياناً أخرى ، وهم مع اختـلاف آرائهم المذهبيـة متفقون عـلى الثورة ضـد بني أمية ، وعـلى إظهار حبهم لآل البيت ، وإيمـانهم بأئمتهم ، إلى جـانب ما تميزوا بـه من بكاء حار على قتلاهم .

أمـا الخوارج الـذين انحازوا إلى حـروراء رافعين شعـارهم بـألا حكم إلا الله ، مبايعين عبد الله بن وهب الراسبي (٣٨ هـ/٦٥٨ م) إماماً لهم ، فكانت بداية شعرهم المعبر عن اتجاههم السياسي ومذهبهم ، في أعقاب موقعة النهـروان (٣٨ هـ/٦٨ م) التي قتل فيها معظم رؤوس الخارجين ، وفيهم أمامهم . وقـد ولد ذلك سخطاً شديداً بينهم ، كان من ثماره قتل عـلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وعقيـدة الخوارج أسـاسها أن الخـلافة لا ينبغي أن تكـون مقصـورة عـلى قـريش ، بـل هي من حق أي مسلم تقي ، ولـو كـان عبـداً حبشيـاً . وهم يتصـورون الجمـاعـة الإسـلاميـة بعيـدة عن طـريق الـدين الصحيـح ، ولهـذا يستحـلون قتال أي مسلم ، ما دام لا يؤمن بعقيـدتهم . ومن هنا كـان طابعهم التشدد والعنف والقتال الدائب الذي لا يهدأ، والخلاف مع الأحزاب السيـاسية والفرق الإسلامية الأخرى ، فعقيدة الخارجي تتمثل في قول الشاعر :

رأى النـاس إلا من رأى مثـل دينـه ملاعـين تـراكـين قصـد المخـارج[2]

وقـد تفرق الخـوارج إلى أربع شيـع مختلفـة هم الأزارقـة ، والنجـدات ، والصفرية ، والإباضية ، ولكن الخلاف بينها لم يكن عميقاً مثل الخـلاف الواقـع بـين فرق الشيعـة ، ولا نكاد نجـد تمايـزاً بـين شعـرائهم سـواء في النهـج الفني

---

(١) الحيوان ٦ : ٣٨٩.

(٢) شعر الخوارج: ٥٠.

للقصيدة أم الأفكار التي تدار حولها ، فكل شعرهم إنما يعبر عن الجهاد في سبيل العقيدة التي يؤمنون بها ، ولهذا يغيب عن شعرهم اللون السياسي أو المذهبي الذي يصبغ أشعار الفرق الأخرى ، وتظهر فيه نغمة حماسية تصور ما خاضوه من حروب ووقائع ، وتمجد أبطالهم وتسابقهم إلى الاستشهاد . ويفترق شعرهم عن الحماسة الجاهلية في بعده عن النزعة القبلية بعداً كاملاً ، فدافع حماستهم عقيدتهم وحدها التي يظنونها العقيدة الإسلامية الصحيحة . يقول معاذ بن جوين :

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء	شري نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة	وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنما	إقامتكم للذبح رأياً مضللا[1]

ويتمنى الشاعر الخارجي ملاقاة الموت في صراعه ضد الضالين ، كما يقول قطري بن الفجاءة (٧٨ هـ/٦٩٧ م) :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى	معاراتها تدعو إلى حماميا
أقارع عن دار الخلود ولا أرى	بقاء على حال لمن ليس باقيا
ولو قرب الموت القراع لقد أتى	لموتى أن يدنو لطول قراعيا[2]

ويتصل بشعر الخوارج الحماسي وطبيعة حياتهم المقاتلة ، وشعورهم بعداء كل الأحزاب والفرق الإسلامية لهم ، وتوقعهم الموت في كل لحظة ، إحساسهم بتفاهة الحياة الدنيا ، ولهذا تسود أشعارهم نزعة الزهد والتقشف والإعراض عن الحياة ، يقول شاعرهم :

ما رغبة النفس في الحياة وإن	عاشت قليلاً فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما	كان يراها بالأمس خالقها
يوشك من فر من منيته	في بعض غراته يوافقها

---

(١) شعر الخوارج: ٨.

(٢) شعر الخوارج: ٤٣.

من لم يمت عبطة يمت هرماً   والموت كأس والمرء ذائقها[1]

ويبدي عمران بن حطان (٨٤ هـ/٧٠٣ م) هذا الشعور الزاهد في الحياة في كثير من أشعاره ، كما في قوله :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها   على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تحب فإنها   سحابة صيف عن قليل تقشع[2]

وكانوا في أوقات راحتهم من القتال يتعبدون ويتهجدون ، كما نرى في قول شاعرهم عمرو بن الحصين :

كم من أخ لك قد فجعت به   قوام ليلته إلى الفجر
متأوه يتلو قوارع من   آي القرآن مفزع الصدر[3]

وكان من فرق الخوارج من يرى القعود عن القتال مثل الصفرية ، ونرى في شعر هؤلاء بعض مظاهر إقبالهم على الدنيا ، ممتزجة برغبة دفينة في أن يكونوا مثل نظرائهم المقاتلين كما نرى في شعر الطرماح بن حكيم (نحو ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م) حيث يقول :

وإني لمقتاد جوادي وقاذف   به وبنفسي العام إحدى المقاذف
لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى   من الله يكفيني عدات الخلائف
فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن   على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومي سعيداً بعصبة   يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم   تقى الله نزالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى   وصاروا إلى موعود ما في المصاحف[4]

ونحس في شعر بعض هؤلاء القاعدين إحساساً عميقاً بالإثم يدفعهم إلى الضيق بالحياة ونبذ الدعة . وفي الشعر الذي تبادله قطري بن الفجاءة وسبرة

---

(١) شعر الخوارج: ٣٠.
(٢) نفسه: ١٧.
(٣) نفسه: ٨٤.
(٤) شعر الخوارج: ٩٨.

ابن الجعد الخارجي تصوير لإخلاصهم المثالي لعقيدتهم وزهدهم في الحياة المترسب في أعماقهم ، فقد كان سبرة قد مال إلى متع الدنيا وأصبح سميراً للحجاج بن يوسف الثقفي (٩٥ هـ/ ٧١٤) فكتب إليه قطري شعراً يقارن فيه بين حياة الخوارج العنيفة المقاتلة ، وحياته الناعمة المرهفة ، وفتح له باب التوبة بالعودة إلى الجهاد . ولم يكد سبرة يسمع هذا الشعر حتى ثارت في نفسه عقدة الإثم ، ولام نفسه على ما كان فيه من ضلال ، وانطلق ليقاتل في صفوف إخوانه .

وشعر الخوارج صادق في تعبيره عن مذهبهم ، وخاصة موقف التطرف العنيف في تقواهم ، إذ كانوا يلزمون أنفسهم الاستعلاء على كل ملذات الحياة حتى اللذة الجنسية ، كما نرى في شعر لامرأة خارجية ، هي أم حكيم وذلك في قولها :

ألا إن وجهـا حسـن الله خلقـه لأجدر أن يلفى به الحسن جامعا
وأكرم هذا الجرم عن أن يناله تورك فحل همه أن يجامعا[1]

وكذلك في تعبيره عن إحساسهم العميق بفكرة الموت التي تسيطر عليهم وتمثل نوعاً من اليأس . ونتمثل في شعرهم الصورة المثالية للخارجي ، وإن كنا لا نعدم وجود آثار صراع بين المثال والواقع ، كالصراع بين المقاتلين والقاعدين ، وبين الزهد في الحياة والإقبال عليها في نفوس بعض الشعراء الخارجين . ونرى الخوارج في شعرهم لا يحفلون بالتقاليد الفنية الموروثة بالنسبة لنهج القصيدة ، فقد اختفت المقدمة الطللية والغزلية من قصائدهم الطويلة ، وإن كانت أشعارهم في معظمها مقطعات صغيرة تناسب المواقف التأثرية السريعة التي تدعو إليها هذه الأشعار . وهم يبتعدون عن المديح إلا إذا وجه لأبطالهم ، وعن الفخر إلا بالإيمان والتقوى والشجاعة ، وقلما نجد فيه إحساساً فردياً ، بل هو عادة إحساس عام بهذه المعاني . كذلك يبتعدون عن الغزل إلا في سياق الفخر بالإنتصار للعقيدة ولا يكون إلا للحليلة ، ويبتعدون عن الهجاء

(١) شعر الخوارج: ٤١.

إلا إذا كان موجهاً إلى أشخاص معينين يفتقرون إلى الشجاعة والتقوى أو إلى المجتمع لجشعه وتهالكه على الدنيا ، وغياب العدالة الاجتماعية عنه .

وفي مجال الشعر الأموي السياسي بدأت في الظهور النزعة الشعوبية المناهضة للحكم العربي بصفة عامة ، وكان اسماعيل بن يسار (نحو ١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م) شديد التعصب لأعجميته ، كثير الفخر على العرب ، فهو يقارن بين حضارة الفرس وبداوة العرب فيقول :

رب خال متوج لي وعم ماجد مجتدي كريم النصاب
إنما الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسون سفاها بناتكم في التراب(١)

كذلك ظهرت في الشعر الأموي احتجاجات قوية على بعض أساليب الحكم والحكام ، فالنجاشي يعارض سياسة معاوية في استخدامه الجند اليمنيين في المعارك البحرية ، واستخدامه القيسية في المعارك البرية وهي أكثر أمناً . يقول الشاعر :

ألا أيها الناس الذين تجمعوا بعكا أناس أنتم أم أباعر
أترك قيس آمنين بدارهم ونركب ظهر البحر والبحر زاخر
فوالله ما أدري وإني لسائل أهمدان تحمي ضيمها أم يحابر
أم الشرف الأعلى من أولاد حمير بنو مالك أم تستمر المرائر
أأوصى أبوهم بينهم أن تواصلوا وأوصى أبوكم بينكم أن تدابروا(٢)

وعبدالله بن همام السلولي (نحو ١٠٠ هـ/ ٧١٨ م) يهاجم نظام وراثة العرش الذي ابتدعه معاوية .

---

(١) الأغاني ٤: ٤١١.
(٢) خزانة الأدب ٢ : ٣٥٥

يقول :

فإن تأتوا برملة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى ... نعد ثلاثة متناسقينا
فيا لهفا لو أن لنا ألوفا ... ولكن لا نعود كما عنينا
إذا اضربتمو حتى تعودوا ... بمكة تلعقون بها السخينا
حشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا[1]

وأنس بن زنيم يحتج على زواج مصعب لعائشة بنت طلحة (١٠١ هـ/ ٧١٩ م) ودفع صداق ضخم من مال المسلمين ، بينما يبيت الجند جياعا .

يقول الشاعر :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف ألف درهم ... وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لأبي حفص أقول مقالتي ... وأقص شأن حديثكم لا رتاعا[2]

إلى غير ذلك من انتقادات سياسية مرة كانت تنبعث من شعراء ، ربما لم يكونوا ينتمون إلى حزب بعينه .

وفي غمرة الصراع السياسي والمذهبي تولدت فرقة المرجئة التي كانت صدى للخلاف بين عقائد الشيعة والخوارج ، فهم لا يريدون أن يحكموا لفريق على آخر ، بل يرجئون الأمر لله . كذلك كان موقفهم من مرتكب الكبيرة ، فقد فتحوا له باب الرجاء في المغفرة ، بتأخير الحكم عليه إلى يوم القيامة ، على أساس المبدأ القائل بأنه لا تضر مع الإيمان معصية . كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وعلى أساس الفصل بين الإيمان والعمل .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٧٠.

(٢) الشعر والشعراء: ٣٨٤.

وكان المرجئة يعنون بالبحث في بعض قضايا الاعتقاد مثل الإيمان والكفر وحرية الإرادة عند الإنسان وعلاقتها بقضاء الله . وانقسموا بسبب الخلاف حول هذه القضايا إلى طوائف اختلفت نظرتها إلى الأحزاب السياسية القائمة ، فكان مرجئة الجبرية مؤيدين لبني أمية باعتبار أن خلافتهم قدر محتوم . وكان مرجئة القدرية من ألد أعداء بني أمية . بينما ظلت المرجئة الأصيلة أمينة على حيادها بين التيارات السياسية والمذهبية المتعارضة .

وكان ثابت قطنة (١١٠ هـ/ ٧٢٨ م) أكبر داعية لمذهب الإرجاء في شعره وهو يشرح عناصر مذهبهم وموقفهم من الفرق الأخرى في قوله :

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا	أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة	ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم	والمشركون استووا في دينهم قدرا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا	الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا	سفك الدماء طريقا واحدا جددا
كل الخوارج مخط في مقالته	ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علي وعثمان فإنهما	عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا[1]

ولا شك أن مذهب الإرجاء قد تأثر في أصوله بآراء إغريقية ومسيحية ، وأنه حاول التوفيق بين المصالح المتعارضة للمسلمين على اختلاف أجناسهم . ولهذا كان من أسسه العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الإسلام ، وعلى هذا المبدأ قامت ثورة الحارث بن سريج (١٢٨ هـ/ ٧٤٦ م) ضد بني أمية .

وقد جرت مناظرات بين المرجئة والأمويين في أيام عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ/ ٧٢٠ م) فقد طلب الخليفة أئمتهم وناظرهم بنفسه ، واستطاع أن يقنع بعضهم بالتخلي عن الإرجاء . كذلك ناظرهم نصر بن سيار والي بني أمية على خراسان (١٣١ هـ/ ٧٤٨ م) ورد عليهم بشعر يكشف فيه عن النواحي

---

(١) الأغاني ١٣ : ٥٠

السلبية في مذهبهم ، وأهمها عدم إقامتهم فرائض الدين على زعم أن الإيمان محله القلب ، فهو يقول :

فامنح جهادك من لم يرج آخرة — وكن عدوا لقوم لا يصلونا
واقتل مواليهم منا وناصرهم — حينا تكفرهم والعنهم حينا
والعائبين علينا ديننا وهم — شر العباد إذا خابرتهم دينا
والقائلين سبيل الله بغيتنا — لبعد ما نكبوا عما يقولونا[1]

وتولد من مرجئة القدرية مذهب جديد هو الإعتزال ، نتيجة اختلاف حول فكرة العفو . فالمرجئة تجيز احتمال عفو الله حتى مع عدم التوبة ، ومع الإكثار من المعاصي ، بينما رأى الخوارج أنه كافر ، ورأى الحسن البصري (١١٠ هـ/ ٧٢٨ م) ومن تابعه من القدرية أنه مؤمن فاسق ، ورأى واصل بن عطاء (١٣١ هـ/ ٧٤٨ م) وكان من أتباع القدرية أنه غير مؤمن ولا كافر ، بل في منزلة بين المنزلتين وسرعان ما تألفت فرقة جديدة باسم المعتزلة ، كان من أسس اعتقادها نفي صفات الله تعالى من العلم والقدرة ، والإيمان بأن القرآن محدث ومخلوق ، وأن الله ليس خالقاً لأفعال العبد . ثم قام مذهبهم على قواعد خمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولما كانت حرية الإرادة عند الإنسان من أهم ما يميز المعتزلة أصبح العقل عندهم له أهميته القصوى ، كما يقول واصل بن عطاء في شعره ، مبيناً كيف أن العقل يعذب صاحبه لأنه مناط التفكير :

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم — ولا تلقهم بالعقل إن كنت ذا عقل
فإن الفتى ذا العقل يشقى بعقله — كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل

وقد صور لنا صفوان الأنصاري جهاد المعتزلة في دعوتهم ، فهم ينطلقون في كل مكان مهما بعد ، يستهينون بالحر والبرد والمشقات ، كما كشف عن بعض

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٢٢٣.

مبادئهم في قصيدته التي يتحدث فيها عن زعيمهم واصل إذ يقول :

له خلف شعب الصين في كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر
إذا قال مروا في الشتاء تطاوعوا ... وإن كان صيفا لم يخف شهر ناجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة ... وشدة أخطار وكد المسافر
وما كان سحبان يشق غبارهم ... ولا الشوق من حي هلال بن عامر
تلقب بالغزال واحد عصره ... ممن للقيامى والقبيل المكاثر
ومن لحروري وآخر رافض ... وآخر مرجي واخر حائر
وأمر بمعروف وإنكار منكر ... وتحصين دين الله من كل كافر
يصيبون فصل القول في كل منطق ... كما طبقت في العظم مدية جازر

ويبتعد شعر المعتزلة عن الإحساس الذاتي ، ويقترب من الموضوعية إلى حد كبير ، وقد اتسع لآرائهم ومعتقداتهم اتساعاً كبيراً ، فهم تارة يردون على أصحاب الديانات الباطلة والنحل الفاسدة ـ كما يشير الشاعر في الأبيات السابقة معتمدين على الأدلة العقلية والبراهين المادية ، وتارة يوضحون أركان عقيدتهم وموقفهم من المذاهب الأخرى . فقد كتب بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م) قصيدة في الرد على الخوارج في قولهم بتكفير علي بن أبي طالب ، مبيناً فساد هذا الإعتقاد ، وكتب معتزلة آخرون في إنكار مذهب الجهمية ، ومذهب الذين يفضلون النار على الطين . وكتب بشر أيضاً في الفلسفة الطبيعية يشيد بحكمة الله المتجلية في أنحاء الطبيعة ، وأن الكون يتضمن عجائب كثيرة ومخلوقات متباينة ، لو فكر الإنسان فيها بعقله لأدرك الكثير من الحقائق التي تخفى على بعض الناس .

ومع وجود المعاني العميقة في شعر المعتزلة ، والموضوعات الفكرية الجديدة التي لم يتسع لها الشعر العربي من قبل ، ضحى شعراء المعتزلة بجمال الصياغة وبراعة التعبير ، ومعظم عناصر الجمال الفني . وكذلك كان شأن الشعر الذي كتبه أصحاب الفرق الأخرى من المتكلمين ، إذ جعلوه وعاء لأفكارهم ،

ووسيلة لنشر معتقداتهم ، لا يقصدون به إلى متعة فنية أو إلى تعبير عن إحساس ذاتي .

الصراع القبلي في الشعر الأموي :

انتفضت في الشعر الأموي العصبيات القبلية الجاهلية ، بعد ان كانت قد هدأت في عصر الرسول وخلفائه الراشدين . وقد اتخذت هذه العصبيات القديمة ستاراً جديداً تختفي وراءه وتجعله واجهة لها ، وأعني بها الأحزاب السياسية التي أوجدت لوناً جديداً في الشعر العربي ، غير أن الشعر الذي تدفع إليه العصبية القبلية ، كان مختلفاً تماماً عن الشعر السياسي الذي عرضنا له فيما سبق ، مختلفاً في دوافعه وموضوعاته وبنائه الفني ، ولكنه قريب الشبه بشعر الحماسة الجاهلية الذي كان حصاداً للصراع بين القبائل .

وكانت موقعة مرج راهط (٦٥ هـ/ ٦٨٥ م) التي انتصر فيها مروان بن الحكم (٦٥ هـ/ ٦٨٥ م) تبدو في ظاهرها حرباً بين الأمويين والزبيريين ، ولكنها في الحقيقة كانت صراعاً بين المضرية وتمثلها قيس ، واليمنية وتمثلها كلب ، يقول زفر بن الحارث (نحو ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م) شاعر قيس بعد هذه الموقعة :

أريني سلاحي لا أبالك إنني	أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه	مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب	إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني إن تغيبت غافلا	ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هي ما هيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط	لمروان صدعا بيننا متنائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا	وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبن غارة	تنوخا وحي طيء من شفائيا[1]

(١) العامل لابن الأثير ٤ : ٧٥.

ورد عليه شاعر كلب جواس بن قعطل بنقيضة تكشف عن طبيعة هذا الصراع القبلي بين عرب الشمال والجنوب ، فقال :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... على زفر داء من الداء باقيا
مقيما ثوى بين الضلوع محله ... وبين الحشا أعيى الطبيب المداويا
تبكي على قتلي سليم وعامر ... وذبيان معذورا وتبكي البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى ... سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة ... إذا شرعوا نحو الطعان العواليا[1]

وقد اشتركت قبيلة تغلب النصرانية ـ على الرغم من كونها قبيلة شمالية ـ إلى جانب القبائل اليمنية المناصرة لبني أمية في هذا الصراع العنيف الذي كان دائراً بينها .

وتحرج بعض التغلبيين من حرب إخوة لهم ، كما يتضح لنا في شعر القطامي (عمير بن شيم نحو ١٣٠هـ / ٧٤٧م) الذي يستهله بمخاطبة ابنة زفر بن الحارث زعيم قريش فيقول :

قفي قبل التفرق يا ضباعا ... ولا يك موقف منك الوداعا
قفي فادي أسيرك إن قومي ... وقومك لا أرى لهم اجتماعا
وكيف تجامع مع ما استحلا ... من الحرم العظام وما أضاعا
ألم يحزنك أن حبال قيس ... وتغلب قد تباينت انقطاعا
يطيعون الغواة وكان شرا ... لمؤتمر الغواية أن يطاعا
ألم يحزنك أن ابني نزار ... أسالا من دمائهما التلاعا[2]

ولكن المصلحة العليا للقبيلة دفعت إلى حرب قيس ، وتغنى الأخطل بانتصارات قبيلته في المواقع المختلفة ، كما في قوله بعد موقعة الثرثار :

ألا من مبلغ قيسا رسولا ... فكيف وجدتم طعم الشقاق

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤: ٥٧.

(٢) ديوان القطامي: ٣١.

أصبنا نسوة منكم جهارا بلا مهر يعد ولا سياق
تظل جيادنا متمطرات مع الجنب المعادل والمشاق
ملأنا جانب الثرثار منهم وجهزنا أميمة لانطلاق[1]

وقد تصدى جرير ـ نظراً لهواه مع قيس ـ للرد على الأخطل في كثير من المواقع التي جرت بين القبيلتين ، ونراه يفخر عليه يوم انتصار قيس بقيادة زفر بن الحارث على تغلب في موقعة الكحيل فيقول :

حملت عليك حماة قيس خيلها شعثا عوابس تحمل الأبطالا
ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا نكر عليكم ورجالا
زفر الرئيس أبو الهذيل أبادكم فسبى النساء وأحرز الأموالا
قال الأخيطل إذ رأى راياتهم يا مار جرجس لا نريد قتالاً
هلا سألت غثاء دجلة عنكم والخامعات تجمع الأوصالا[2]

وقد تميز الشعر القبلي بهذه النغمة الحماسية الحادة التي تسري في أبياته ، وبهذه الألفاظ الجزلة ذات الوقع الشديد التي تعبر عن معاني الشماتة والزهو ، وتبالغ في تصوير المعارك ، وتتعاقب فيها الصور لوصف عنف القتال ومشاهد القتلى والجرحى ، كما تتضمن ألواناً من التهديد العنيف بإدراك الثأر ، وخاصة عقب مقتل أحد زعماء أي فريق .

وقد أثمرت هذه الأشعار القبلية مجموعة كبيرة من النقائض التي تلتزم في معظم الأحيان وزناً واحداً وروياً واحداً ، وكأن صاحب النقيضة يريد أن يثبت تفوقه على صاحب القصيدة الأولى من حيث قدرته على الوزن والقافية ، وتمكنه من الناحية الفنية ، إلى جانب التزامه تعقب معاني زميله ، ومحاولة دحضها والرد عليها . ونظراً لأن فن النقائض منذ الجاهلية ، قام على أساس المنافرات القبلية ، نجده في فترة ازدهاره في العصر الأموي يلتزم هذا الإتجاه ، حتى لتكاد تكون النقائض ديواناً لأيام العرب ووقائعهم في الجاهلية والإسلام .

---

(1) ديوان الأخطل : ٣١.
(2) الأغاني ١٢ . ١٩٨.

وقد أثمر الصراع العنيف بين القبائل اليمنية والمضرية عدداً كبيراً من النقائض ، فحين فخر عمرو بن مخلاة الكلبي بانتصار قبيلته في مرج راهط بقوله :

ويوم ترى الرايات فيه كأنها　　عوائف طير مستدير وواقع
فمن يك قد لاقى من المرج غبطة　　فكان لقيس فيه خاص وجادع
فلن ينصب للناس راية　　من الدهر إلا وهو خزيان خاشع[1]

أجابه زفر بن الحارث القيسي مشيراً إلى أن خلافهم مع بني أمية خلاف بين إخوة ، ولكن خلافهم مع القبائل اليمنية أعمق من ذلك بكثير :

فخرت ابن مخلاة الحمار بمشهد　　علاك به في المرج من لا تدافع
علاك به قوم كأنك وسطهم　　إذا الحرب شبت ثعلب متطالع
فإن نك نازعنا قريشا فإنهم　　أخونا ومولانا الذين ننازع
فأي قبيلينا وأمك ما يكن　　لك الملك تتبعه وخدك ضارع[2]

كذلك أثمرت الحرب بين قيس وتغلب عدداً كبيراً من النقائض ، منها ديوان كامل يختص بنقائض الشاعرين الكبيرين : جرير والأخطل ويضم عشرين نقيضة . ولا شك أن في النقائض جانباً ذاتياً يعبر عن خلاف شخصي بين الشاعرين ، كما يتضح لنا في قول جرير يفتخر بنفسه وبمضر :

الضاربون على النصارى جزية　　وهدى لمن تبع الكتاب ونورا
الله فضلنا وأخزى تغلبا　　لن تستطيع لما قضى تغييرا
وإذا وطأتك يا أخيطل وطأة　　لم يرج عظمك بعدهن جبورا
أفبالصليب ومار جرجس تتقي　　شهباء ذات كتائب جمهورا[3]

وهناك عوامل أخرى - إلى جانب الصراع القبلي والسياسي - أعانت على

---

(١) نقائض جرير والأخطل: ١٨، ١٩
(٢) المصدر نفسه
(٣) نقائض جرير والأخطل: ١١٩

ازدهار فن النقائض في العصر الأموي . فلا شك أن روح الجدل والمناظرة في العقائد والمذاهب والفلسفة قد أمدت فن النقائض بزاد جديد ـ ولم تعد النقائض مجرد هجاء متبادل له قواعده وأصوله ، بل صارت مجالاً لإثبات القدرة الفنية والبراعة العقلية ، إلى جانب صيرورتها فناً شعبياً يقبل الجمهور على سماعه ، فيؤدي بذلك دوراً اجتماعياً مهماً في ذلك العصر .

وإذا كانت نقائض جرير والأخطل تعكس في أساسها الصراع القبلي بين قيس وتغلب ، فإن نقائض جرير والفرزدق تعكس الصراع بين عشيرتين من تميم : كليب اليربوعية قوم جرير ، ومجاشع الدارمية قوم الفرزدق ، وإن كانت تعرض أيضاً للصراع مع قيس نتيجة تشابك المصالح السياسية .

وفن النقائض يقوم على الإلمام الواسع بتاريخ العرب وأيامها ومفاخرها ومثالبها في القديم والحديث ، ويستدعي الإحاطة بشخصيات رجالها وأدوارهم في التاريخ . وهي من هذه الناحية قصائد موضوعية تهتم أولاً بالحقائق ، وإن كانت تضخمها وتضفي عليها أحياناً عناصر خيالية . والشاعر في النقائض يتبع عادة المنهج التقليدي للقصيدة العربية ، فيستهلها بوصف الأطلال والنسيب ، ثم هو لا يقصرها على موضوع المناظرة في تعداد مفاخر قبيلته ومخازي القبيلة الأخرى ، وإلا صارت النقائض نوعاً من الشعر التعليمي يتضمن أيام العرب ووقائعهم فحسب ، بل نراه يضمنها مديحاً للخلفاء والولاة أحياناً ، وغزلاً أو رثاء أو وصفاً في أحيان أخرى ، إلى جانب ما يأخذ فيه من معاني الفخر والهجاء .

وربما أنشأ الشاعر قصيدته لغرض آخر غير الهجاء ، فلا يلبث خصمه أن ينقضها ، ومثال ذلك قصيدة جرير في رثاء زوجته ، فقد نقضها عليه الفرزدق شامتاً بمصيبته ، فاضطر جرير أن يجيبه عليها ، وألحق رده بقصيدته الأولى في الرثاء .

وعلى الرغم من تأثر فن النقائض بالحياة العقلية في العصر الأموي إلا أنه يظل فناً بدوياً وثيق الصلة بالشعر الجاهلي ، بل بالحياة الجاهلية أيضاً البعيدة عن

الحضارة . فالشاعر فيه يفخر بنفسه وبقبيلته ، ويهجو خصمه هجاء شخصياً قبيحاً فاحشاً ، كما يهجو قبيلته ، ولا يخرج في معاني الفخر والهجاء عن الحدود الجاهلية القديمة ، بل لا يخرج في النسيب ووصف الصحراء وحيوانها ، ووصف الحرب وأدواتها ، عن الإطار الجاهلي القديم . وهو في كل ذلك يصطنع الأسلوب البدوي الجاهلي في ألفاظه الجزلة الغريبة ، وفي صياغته الوحشية التي تستمد صورها الفنية من قيم الصحراء ومناظرها الحسية . ولعل الشيء الذي يسترعي النظر في النقائض إغراقها في الإفحاش بهتك الأعراض ، والتصريح بذكر العورات ، بصورة لم نر لها مثيلاً في الشعر الجاهلي، كما أنها أشد غرابة في البيئة الإسلامية التي تفرض أخلاقها مثل هذا الأدب المكشوف، ولكننا نستطيع أن نجد تبريراً لهذه النزعة بالنظر إلى أن النقائض فن شعبي في جملته، يقبل عليه عامة الناس، والعامة دائماً يترخصون في مثل هذا المجال.

ونظراً لكثرة النقائض وتلاحقها نجد معانيها العامة محدودة مكررة ، ولكن الشعراء يحاولون في كل مرة التوليد فيها واستحداث أسلوب لتصويرها عن طريق القصة التي تتضمن الحوار الفكه والدعابة الضاحكة . وكان جرير أبرع شعراء النقائض في هذا الاتجاه ، فقد استطاع مثلاً أن يحدث صوراً فنية مختلفة في معنى متكرر وهو اتهامه لأجداد الفرزدق بأنهم كانوا حدادين . كذلك كان إحساسه الفني يعتمد على الملاحظة الدقيقة والخيال الخصب ، فهو يهجو قوم الفرزدق بالسمن والترهل والإقبال على الطعام ، مع قلة الغناء في الحرب ، فصنع من ذلك صورة دقيقة يقول فيها :

متى تغمز ذراع مجاشعي ... تجد لحماً وليس على عظام
فما صدق اللقاء مجاشعي ... وما جمع القناة مع اللجام
تولون الظهور إذا لقيتم ... وتدنون الصدور من الطعام[1]

كذلك كان يستخدم الخصائص الصوتية للألفاظ استخداماً بارعاً

---

(١) ديوان جرير ١ : ٥١٠.

للإضحاك والسخرية بالمهجو . أما الفرزدق فكان أعرابياً شديد الجفاء في ألفاظه وصوره حتى ليبدو جاهلياً بدوياً بعيداً عن الإسلام ، فهو لا يبالي أن يصم نفسه ـ بإرتكاب الفاحشة وشرب الخمر مجاراة للجاهليين كما يقول في هجائه لجرير :

إن تك كلباً من كليب فإنني ... من الدراميين الطوال الشقائق

نظل ندامى للملوك وأنتم ... تمشون بالأرباق ميل العواتق

وإنا لتجري الخمر بين سراتنا ... وبين أبي قابوس فوق النمارق

لدن غدوة حتى نروح وتاجه ... علينا وذاكي المسك فوق المفارق[1]

شعر الحب والغناء :

إذا كانت بيئة الشام والعراق قد امتلأت في العصر الأموي بالأشعار التي تصور صراع الأحزاب السياسية ، وطوائف المتكلمين ، وأصحاب المذاهب المتعارضة ، والعصبيات الحادة ، وبأصداء النقائض التي تصور ردة الشعر الجاهلي ، فقد شهدت بيئة الحجاز لوناً مختلفاً من الشعر يتفق مع طبيعة الحياة فيها ، وخاصة بعد انتهاء فتنة ابن الزبير وعودة الحياة الهادئة إلى الحجاز وإبعاده عن الصراع السياسي .

كانت بيئة الحجاز بطبيعتها متحضرة منذ العصر الجاهلي ، وخاصة في مركزيها الكبيرين مكة والمدينة ، ثم أصبحت محوراً لنشاط عقلي عظيم بعد ظهور الإسلام ونشأة العلوم المختلفة لتوضيح أسسه وبسط قواعده، والتفكير في قضايا تطبيقية في الحياة العملية . ثم أصاب الثراء هذه البيئة بما تدفق عليها من غنائم الفتوح الإسلامية الأولى ، وبما أغدقه الأمويون من عطاء على أبناء الصحابة ووجوه قريش ، لصرفهم عن التفكير في المعارضة السياسية ومخالفة بني أمية .

ومع هذا الثراء الذي صادفه قوم متحضرون ، ومع الاستقرار السياسي

---

(١) ديوان الفرزدق ٢ : ٥٩٤.

الذي ابتعد عن وجوه النزاع والصراع انصرف الحجازيون إلى حياتهم الاجتماعية يستمتعون فيها بكل ما أنتجته الحضارات الأجنبية التي عرفوها من وسائل للمتعة واللهو ، فعنوا بفخامة أبنيتهم ، وغالوا في ثيابهم وطعامهم وزينتهم ، ووجدوا في الغناء تسليتهم في هذا الفراغ الذي يحسه عادة من يكفهم ثراؤهم الواسع عن الارتباط بعمل ، أو اكتساب الرزق بالسعي والمجاهدة .

وتأثر الغناء العربي بالغناء الفارسي والرومي ، وانتشرت مجالسه ، وكثر رواده ، وأصبح متعة شائعة بين عامة الناس وخاصتهم ، لا يتحرج من الإقبال عليه حتى العلماء والفقراء وأهل النسك ، وبدأ الوجهاء في التنافس على شراء القيان البارعات في الغناء ، فاشتهرت عزة الميلاء (نحو ١١٥ هـ/٧٣٣ م) ، وحبابة (١٠٥ هـ/٧٢٣ م) ، وسلامة (نحو ١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م) ، وجميلة (نحو ١٢٥ هـ/٧٤٣ م) . وخصصت دور في المدينة لسماع الغناء مثل دار جميلة التي كان يفد إليها أهل المدينة على اختلاف طبقاتهم لسماع فنون من الغناء والعزف على آلات موسيقية مختلفة ، ومشاهدة ألوان من الرقص الذي كان يصاحب الغناء عادة .

واشتهر من المغنين ابن سريج (٩٨ هـ/٧١٦ م) الذي كان أول من غنى غناء عربياً على العود الفارسي بمكة في أيام عثمان بن عفان ، وطويس (٩٢ هـ/ ٧١١ م) ، وابن عائشة (نحو ١٠٠ هـ/٧١٨ م) ، وسائب خاثر (٦٣ هـ/٦٨٢ م) ، ومعبد (١٢٦ هـ/٧٤٣ م) ، وابن مسجح (نحو ٨٥ هـ/٧٠٤ م) ، وابن محرز (نحو ١٤٠ هـ/٧٥٧ م) .

وكان من أثر شيوع الغناء في هذه البيئة الحضارية الترفة الوادعة ازدهار الشعر العربي الذي يعبر عن مشاعر حب حقيقية تولدت في هذه البيئة المتحررة إلى حد ما من قيود الاختلاط بين الجنسين ، ولم يكن غزلاً تقليدياً يأتي في مقدمات القصائد مثلما كان الشعر الجاهلي أو الشعر الإسلامي التقليدي . فلم يكن عسيراً على الشباب من الجنسين اللقاء بوسيلة أو بأخرى في هذا المجتمع الحجازي الذي صرف إلى متعته قدراً كبيراً من وقته ونشاطه ، والذي خفف شيوع الغناء ومجالسه من جهامة الحياة فيه ، بل ربما أشاع قدراً كبيراً من اللين

والسرفق في عادات النـاس وأخلاقهم ، حتى قيـل عن طـويس إنـه أول من غنى بالعربية في المدينة وأول من ألقى الخنث بها .

وكان من الطبيعي أن يغرى المغنون الشعـراء بتقديم أشعـار تصلح للغناء من حيث إيقـاعها ، وألفـاظها ، ومعنـاهـا . ولم يكن أشهى إلى النفس في هـذه البيئة من سماع شعر الغزل الذي يعبر عن عاطفة إنسانية رقيقة ، ويصور نفسـاً حسـاسة معذبة ، تحكي قصـة حبّ ، أو تعبر عن وصـال أو صـد ، أو تصف شكوى قلب ولم تكن هذه المواقف بطبيعتها بحاجة إلى قصائد مطولة ، بل إلى مقطعات قصيرة محدودة تشيع فيها رقة اللفظ وبساطتـه ، وجمـال الإيقاع الـذي يريح صوت المغني عند إنشاده . وكل هذه اللمسات الحضارية التي أصابت شعر الحب ، كانت تشير إلى اقترانه بالحس الشعبي المتحضر الذي يعزف عن النماذج الجـاهلية البـدوية ، وأشعـار الإسلاميـين الذين قلدوهـا واتبعـوا مـوضـوعـاتهـا ونهجها .

ولم تكن المجتمعـات الحضاريـة في الحجاز بمنـأى عن تيار عـابث داعـر في بعض الأحيان ، يدعو إلى اللذة المحرمة ، ويستبيح مـا نهى الإسلام عنـه ، وقد أثـر هذا التيـار في بعض شعـراء الحب الـذين لم تقنعهم منـه العـلاقـة البـريئـة بالمحبوبة بل أرادوا علاقة حسية صريحة .

وشهدت بوادي نجد والحجاز في العصر الأموي تطوراً واضحاً فيما كـانت تخوض فيه من فنون الشعر التقليديـة ، بسبب الهجرة النشـطة للقبائـل ، ووجود علاقات قوية مستمرة بالمراكز الحضارية ، وإشاعة ولاة بني أمية الأمن والنظام في هذه البوادي حتى لا تكون مقراً للخارجين على الدولة . كل ذلك دفع شعـراءها إلى الابتعـاد عن الموضـوعات التقليـدية كـالحماسـة والفخر والهجـاء ، لانقطاع الأسباب الداعية إليها ، واتصلوا بالمديح حين كانوا يفدون على الخلفـاء والأمراء في الحـواضر للتكسـب ، ولكنهم في بواديهم فـرغوا لأنفسهم يعبـرون عن هواهم تعبيراً حقيقيـاً ، بعيـداً عن التكلف والاصـطنـاع ، وينمـون مـا أحسه بعض أسلافهم الجاهليين من مشاعر العشق التي ذاعت بعض قصصها . وربما كان مـا ترامى إلى أسماع أهل البادية من شعر الغزل الحضري في مكة والمدينة حافزاً لهم

للتعبير عن عواطفهم الصادقة . ولكنهم التزموا في هذا التعبير كل المعاني السامية النبيلة التي تجعل من عاطفة الحب علاقة مقدسة سمتها الطهر والنقاء .

وكان أكثر ما نجد من قصص الحب الطاهر في بني عذرة ، حتى نسب إليهم وعرف بهم . ولا شك أن بعد البادية عن مظاهر العبث والمجون والخنث التي كانت موجودة في المجتمعات الحضرية ، قد جعل سلطان الدين قوياً في نفوس أهلها ، فتساموا بعلاقة الحب في ظله ، واستطاعوا أن يصفوا نفوسهم من شوائب العلائق المادية المحسوسة . وربما دخلت أقاصيص الحب العذري ـ بسبب شعبيتها ـ بعض المبالغات والخيالات ، وربما كانت بعض شخصياتها من نسج الخيال ، ولكنها تبقى بعد ذلك من أروع الشعر العربي في قمة تعبيرها عن أنبل العواطف الإنسانية .

وتبدو أقاصيص الحب العذري متشابهة في مقوماتها ، فالحب عادة ينشأ بين الشاعر وقريبة له ، غالباً ما تكون ابنة عمه ، ويتولد الحب من نشأتهما معاً ، ثم تحول عوارض دون الزواج ، لتذكى نار الحرمان في قلب العاشقين نرى هذا في قصة غرام عروة بن حزام العذري (نحو ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م) بابنة عمه عفراء (نحو ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م) ، فقد فرقت بينهما أمها لفقره ، وزوجتها من أحد الأغنياء في غيبة عروة بأرض اليمن . وفي كل هذه القصص تبتعد الحبيبة مع زوجها ، فإذا أتى العاشق وجد عليها وجدا شديداً ، وحاول الوصول إليها ولقاءها ، ويتم اللقاء كأطهر ما يكون لقاء بين عاشقين . وتصور القصص عادة الزوج نبيلا ، ولكن لا سبيل إلى اجتماع الشمل ، فالموت يلحق بالعاشقين تباعاً ، بعد أن يصاب العاشق بنوع من الخبل يفشل العرافون في علاجه ، يقول عروة يحكي بعض قصته :

خليلي من عليا هلال بن عامر	بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني
ولا تزهدا في الذخر عندي وأجملا	فإنكما في اليوم مبتليان
ألماً على عفراء إنكما غدا	بوشك النوى والبين معترفان
فيا واشي عفراء ويحكما بمن	وما وإلى من جئتما تشيان

بمن لو أراه عانياً لفديته ... ومن لو رآني عانياً لفداني

متى تكشفا عني القميص تبينا ... بي الضر من عفراء يا فتيان

إذن تريا لحماً قليلاً وأعظما ... بلين وقلبا دائم الخفقان

وقد تركتني لا أعي لمحدث ... حديثاً وإن ناجيته ونجاني

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف حجر إن هما شفياني

فما تركا من حيلة يعرفانها ... ولا شربة إلا وقد سقياني

ورشا على وجهي من الماء ساعة ... وقاما مع العواد يبتدران

وقالا : شفاك الله والله ما لنا ... بما ضمنت منك الضلوع يدان

فويلي على عفراء ويلاً كأنه ... على الصدر والأحشاء حد سنان

أحب ابنة العذرى حباً وإن نأت ... ودانيت فيها غير ما متداني[1]

ونجد مقومات القصة نفسها تتكرر في عشق قيس بن الملوح (نحو ٦٨ هـ/ ٦٨٨ م) لليلى العامرية ، وعشق الصمة القشيري (نحو ٩٥ هـ/٧١٤ م) لابنة عمه ريا ، وعشق قيس بن ذريح (٦٨ هـ/٦٨٨ م) للبنى الخزاعية ، وإن كان قيس قد ظفر بزواجه منها ، إلا أن أحداثاً فرقت بين العاشقين ، وأضرمت نار الحرمان في فؤاده ، مما أوقعه في المحنة ، كما نتمثل في قوله الذي يلتمس فيه قربه من لبنى باتحاد الإحساس بمظاهر الطبيعة :

وإن تك لبني قد أتى دون قربها ... حجاب منيع ما إليه سبيل

فإن نسيم الجو يجمع بيننا ... ونبصر قرن الشمس حين تزول

وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي ... ونعلم أنا بالنهار نقيل

وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا ... سماء نرى فيها النجوم تجول[2]

وتدور معاني الشعر العذري حول وصف ما يجده العاشقان من لوعة الحب وعذابه ، ووصف آثار الحرمان في النفس والجسد ، وذكريات الحب منذ كان طفلاً ينمو في قلب العاشقين . ولا يتطرق الشاعر العذري إلى أية أوصاف

---

(١) الأغاني ١٧ : ٢٣ .

(٢) ديوان قيس بن ذريح : ١٤٠ .

حسية في محبوبته ، ولا يتحدث عن مقومات جمالها ، لا بمقياس مثال تقليدي ، ولا بآخر واقعي . وعادة يتفرغ الشاعر العذري تماماً لعشقه ، يفنى فيه طاقته التعبيرية ، فلا يشغل نفسه بموضوع آخر من موضوعات الشعر ، كما أنه مخلص لمحبوبته لا يذكر سواها قط .

ومن الطبيعي أن نحس في هذا الشعر العذري حرارة العاطفة ، وفورة الوجدان ، ولذع الحرمان ، وقربه الشديد إلى النفس . فها هوذا جميل بن معمر (٨٢ هـ/٧٠١ م) يحدثنا عن حبه لبثينة الذي أفنى فيه عمره ، انتظاراً لنوالها ، الذي لم يصبه اليأس قط من الوصول إليه ، على الرغم من زواجها بغيره ، واضطراره إلى الاغتراب والرحلة بعيداً عنها ، يقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل ألقين فرداً بثينة مرة ... تجود لنا من ودها ونجود
علقت الهوى منها وليداً فلم يزل ... إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأفنيت عمري في انتظار نوالها ... وأبليت فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي ... من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردي بعض عقلي أعش به ... مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ... ولا حبها فيما يبيد يبيد
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ... ويحيا إذا فارقتها فيعود[1]

وعلى الرغم من قول بعض الرواة إن كثير بن عبد الرحمن لم يكن صادقاً في حبه لعزة (٨٥ هـ/٧٠٤ م) ، وعلى الرغم من انغماسه في تيار المذهبية والسياسة ، ومدحه للخلفاء والأمراء ، نجد شعر حبه في عزة ملتهباً بالعاطفة النبيلة التي تسلكه في عداد الشعراء العذريين الذين كان من بينهم جماعة من أهل التقي والورع في مكة والمدينة ، من أمثال عروة بن أذنية (نحو ١٣٠ هـ/٨٤٧ م) الفقيه المحدث الذي فتن المغنون بشعره لرقته وجمال أيقاعه ، كما في قوله :

---

(١) ديوان جميل: ٦٥

سليمى أجمعت بيننا فأين تقولها أينا
وقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا
تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينا
وغاب البرم الليلة والعين فلا عينا
فأقبلن إليها مسرعات يتهادينا
إلى مثل مهاة الرمل تكسو المجلس الزينا
تمنين منا هن فكنا ما تمنينا[1]

ومثل عبد الرحمن ابن أبي عمار الملقب بالقس وكان مشغوفاً بسلامة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة (حوالي ١٠٠ هـ/٧١٨ م) ، وهو أحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة، وله قصة حب مع عثمة زوجته التي طلقها ثم ندم وانفعلت نفسه الشاعرة بهذا الحرمان .

ونجد في هذا العصر كثرة من الشعراء الذين يميلون إلى هذا النوع من الشعر ، وإن كانت بعض صفات الشعر العذري لا تتحقق في فنهم أو سلوكهم ، فهم تارة يتجاوزون محبوبتهم إلى غيرها ، مثلما فعل وضاح اليمن (عبد الرحمن ابن اسماعيل نحو ٩٠ هـ/٧٠٨ م) الذي كتب شعراً عذرياً جميلاً في محبوبته روضة ، ثم جاوزها إلى أم البنين ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وحبابة الجارية . ومثلما فعل أبو دهبل الجمحي (٦٣ هـ/٦٨٢ م) الذي كتب شعراً عفيفاً في محبوبته عمرة ، ثم شبب بعاتكة بنت معاوية في أشعار جامحة الخيال أحياناً . وهم تارة أخرى لا تستهويهم المحبوبة لذاتها ، بل لمكانتها ، وخطورة التصدي لها ، فيمثل التغزل فيها عندئذ نوعاً من التحدي ، كما نرى في أشعار الحب التي كتبها محمد بن عبد الله النميري (نحو ٩٠ هـ/٧٠٨ م) في زينب أخت الحجاج .

أما شعر الغزل الحسي فيختلف اختلافاً واضحاً عن طبيعة الغزل العذري فالشاعر فيه يتعرض لجمال المرأة تعرضاً حسياً مفصلاً ، يرضى به شهوته أكثر مما

---

(١) الأغاني ١٨ : ٣٢٧.

يقضي به حق فنه ، ولا يتحدث عن وجد الحب ولوعته إلا ليطفىء نار شهوته بأماني لقاء محسوس . ثم هو في أحيان كثيرة يصف هذا اللقاء ويهتك أسراره ، ولا يعف عن ذكر ما كان فيه ـ إن صدقاً وإن خيالاً ـ كما نرى في شعر عبيد الله بن قيس الرقيات :

أتتني في المنام فقلت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها ومال على أعذبها
شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلان تعجبني وأعجبها
وأضحكها وأبكيها وألبسها وأسليها
أعالجها فتصرعني فأرضيها وأغضبها[1]

والشاعر في هذا النوع من شعر الحب ، لا يقصر شعره على محبوبة واحدة لأنه لا يحب لغاية الحب الذي لا يستطيع دفعه عن نفسه، بل يحب من يشاء بدافع الرغبة وحدها . وكان عمر بن أبي ربيعة يتصدى لكل من يخلبه جمالها ، حتى اللاتي يقدمن إلى الحج ، ولهذا نجد في شعره أسماء حبائب كثيرات يصور علاقته بهن ، وهي دائماً علاقة صريحة ، لا يتحرج من ذكر كل ما يدور فيها كما نرى في قوله :

كلما توعدني تخلفني ثم تأتي حين تأتي بعذر
سخنت عيني لئن عدت لها لتمدن بحبل منبتر
عمرك الله أما ترحمني أم لنا قلبك أقسى من حجر
قلت لما فرغت من قولها ودموعي كالجمان المنحدر
أنت يا قرة عيني فاعلمي عند نفسي عدل سمعي وبصر
فاتركي عنك ملامي واعذري واتركي قول أخي الإفك الأشر
فأذاقتني لذيذاً خلته ذوب نحل شيب بالماء الخصر
ومدام عتقت في بابل مثل عين الديك أو خمر جدر

(١) ديوانه: ١٢٢، ١٢٣.

فتقضت ليلتي في نعمة ... مرة ألثمها غير حصر

وأفري مرطها عن مخطف ... ضامر الأحشاء فعم المؤتزر

فلهونا ليلنا حتى إذا ... طرب الديك وهاج المدكر

حركتني ثم قالت جزعاً ... ودموع العين منها تبتدر

قم صفي النفس لا تفضحني ... قد بدا الصبح وذا برد السحر[1]

وتتضح في هذه الأبيات مظاهر كثيرة من التطور الذي حدث في شعر الغزل، فقد رقت لغته إلى حد بعيد، واقترب الشاعر من لغة الكلام العادي، وخاصة حين أجرى الحوار على لسان المحبوبة وجعله واقعياً محضاً في لفظه وصياغته وأيقاعه . ونجد شخصية المرأة عند شعراء الاتجاه الحسي ثانوية بالنسبة للرجل ، وخاصة في شعر عمر بن أبي ربيعة ، فهي أداة للمتعة ، وهي مدلهة في حب صاحبها الذي يبدو دائماً قادراً عليها ، وهي التي تشكو وتتعذب وتستعطف :

تقول إذ أيقنت أني مفارقها ... يا ليتني مت قبل اليوم يا عمر

بينما نجدها في الشعر العذري قوية مسيطرة يتعذب الرجل بسببها ويمرض ويموت . ولم يكن عمر بن أبي ربيعة وحده الذي يكتب شعره الحسي في صورة قصصية ، يحكي فيها مغامراته العاطفية الفاتكة وما يتخللها من حوار بينه وبين حبائبه ، بل كانت هذه النزعة القصصية موجودة عند غيره من شعراء هذا الاتجاه . فالعرجي (عبد الله بن عمر نحو ١٢٠ هـ/٧٣٨ م) يحكى قصة طويلة عن مجموعة من النساء بعثن إليه رسولاً ليحضره إليهن . فذهب على حذر خوفاً من الرقيب ، فلما اطمئن جلس بالقرب من الباب صامتاً وهن ينظرن إليه في شغف ، ثم ابتدرته إحداهن :

قالت كلابة : من هذا؟ فقلت لها ... أنا الذي أنت من أعدائه زعموا

أنا امرؤ جد بي حب فأمرضني ... حتى بليت وحتى شفني السقم

لا تكليني إلى قوم لو أنهم ... من بغضنا أطعموا لحمي إذا طعموا

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٥٩

وأنعمي نعمة تجزي بأحسنها فطالما مسني من أهلك النعم
ستر المحبين في الدنيا لعلهم أن يحدثوا توبة فيها إذا أثموا
هذي يميني رهن بالوفاء لكم فارضي بها ولأنف الكاشح الرغم
قالت : رضيت ولكن جئت في قمر هلا تلبثت حتى تدخل الظلم
فبت أسقي بأكواس أعل بها من بارد طاب منها الطعم والنسم
حتى بدا ساطع للفجر تحسبه سنى حريق بليل حين يضطرم
وودعتهن ولا شيء يراجعني إلا البنان وإلا الأعين السجم
إذا أردن كلامي عنده اعترضت من دونه عبرات فانثنى الكلم
تكاد إذ رمن نهضا للقيام معي أعجازهن من الأنصاف تنقصم[1]

وتختلف حبائب عمر بن أبي ربيعة عن حبائب غيره من شعراء الغزل الحسي ، إذ كان لا يتغزل إلا في الحرائر ذوات الأحساب ، استكمالاً لإحساسه بالاستعلاء على المرأة وقدرته عليها ، وإدلاله بنفسه وبحسبة وثروته ووسامته . ولكن أمثال العرجي والأحوص (١٠٥ هـ/٧٢٣ م) ، والحارث بن خالد المخزومي (نحو ٨٠ هـ/٧٠٠ م) ، لم يكونوا يدققون في حب المرأة بقدر ما يهتمون بجمالها وسهولة وصالها ، ولهذا كثرت أشعارهم في الجواري ، ولم يكونوا يتحرجون من التغزل بالحرائر ، حتى النساء المتزوجات .

إن شعر الحب في العصر الأموي سواء أكان عذرياً أم حسياً ، قد أسقط كثيراً من التقاليد الشعرية التي ورثها الشعراء الإسلاميون عن الجاهلية ، فنادراً ما نجد الشاعر الغزل يستهل قصيدته ببكاء الأطلال ، فإن فعل ذلك لم يجعل الاستهلال لمجرد تقليد لا يتصل بموضوع أبياته ، بل جعله ضمن نسيج شعره الغزلي واستأثر الغزل بقصيدة الشاعر يعبر بها عن موقف نفسي واحد ، فلم تتسع لأي غرض آخر من موضوعات الشعر التي كانت تضمها القصيدة الجاهلية بصورة تقليدية ، كوصف الرحلة بكل ما فيها من صحراء وحيوان ، ووصف الراحلة ، فإن حدث شيء من هذا في بعض قصائد الغزل المطولة ـ وقلما

---

(١) الأغاني ١ : ٣٨٩.

يحدث ـ حرص الشاعر على إيجاد رابطة بين غزله ووصف رحلته وراحلته ، كما فعل عمر بن أبي ربيعة في رائيته ، بحيث لا يبدو في شعره أي انفصام في موقفه النفسي الواحد .

كذلك استأثر الغزل بشعراء في هذا العصر لم يتجاوزوا هذا الفن إلى غيره فكان العشق عندهم وجود أو حياة كما عبر الأحوص بقوله :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهـوى   فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

فاستقلت بشعر الغزل دواوين كاملة ، كما نرى في ديوان عمر بن أبي ربيعة ، وجميل بن معمر ، وقيس بن ذريح وغيرهم ، أو كان هو الفن الغالب على دواوين آخرين من الشعراء العذريين أو الحسيين .

وغلب اللين الحضاري على لغة شعر الغزل حتى عند شعراء البدو ، فسهلت الألفاظ ورقت إلى جد بعيد ، ونأت عن الغرابة وقوة الأسر . كذلك الأمر بالنسبة للجملة الشعرية التي اقتربت في تركيبها من لغة الكلام العادية ، وخاصة عندما حاكى الشعراء أقوال النساء بكل ما فيها من لين وضراعة .

بين اللهو الزهد :

تطورت الحياة الإجتماعية في العصر الأموي بسبب الهجرة الواسعة للقبائل العربية من جزيرتها ، واستقرارها في أقاليم متحضرة في الشام والعراق ومصر ، وأخذها بكل ما هيأته لها الحضارات الأجنبية من ترف العيش ولين الحياة ، وبسبب هذا التزاوج الواسع الذي تم بين العرب والأجناس الأخرى التي شملتها الفتوح الإسلامية، وكان من ثمرته ظهور جيل جديد من المولدين الذين يحملون خصائص عقلية جديدة نتيجة هذا التزاوج ، وبسبب هذا الانفتاح العقلي الذي شهدته المجتمعات العربية في ذلك العصر على الثقافات الأجنبية المختلفة ، واستمداد الفكر العربي منها ، وتأثره بها في كل مظاهر حياته ، حتى في الأحزاب والفرق السياسية . وكان من نتائج هذا التطور شيوع الحرية الاجتماعية والفكرية بمعناها الواسع الذي يتيح للناس أن يتخذوا أسلوب الحياة الذي يشبع أمانيهم . فالعابد الزاهد يجد في هذا المجتمع تراثاً إسلامياً

عظيماً يهيء له كل أسباب التعبد والتفقه في الدين ، والعابث اللاهي يجد في المجتمع أيضاً كل أسباب اللهو والعبث من شراب تقوم على صناعته وبيعه عناصر أجنبية ، وغناء وعزف ورقص تقيمه بيوت اللهو ، وخلاعه ومجون تبذلها لمن يرغب جوار متحررات من كل قيد ، والشاك والملحد يجد بغيته في ذخر النحل والمعتقدات الأجنبية التي كان يروج لها المفسدون ويسعون إلى ترجمتها ونشرها بين الناس ليفتنوهم عن إسلامهم .

ويحكى الأغاني ما يدل على هذا التزاوج الذي يكون أحياناً بين الجد واللهو البريء في هذا المجتمع ، فقد روى أن عبد الحكم بن عمرو الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات (وهي مجموعة ألعاب للتسلية منقولة عن الفرس) ودفاتر فيها من كل علم . وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد ثم تناول دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به ليلهو[1] .

وقد رأينا كيف جمع بعض النساك من المحدثين والفقهاء في مكة والمدينة بين زهادتهم وعشقهم ، ولم يتحرجوا من الإقبال على الغناء برغم صدق نيتهم في عبادتهم ، ونرى في تاريخ هذا العصر ألواناً من التجاوز لا يفسرها غير اتساع النفس العربية للجد واللهو معاً ، فقد استغلت عائشة بنت طلحة عشق الحارث بن خالد المخزومي (نحو ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م) لها ، وطلبت أن يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها ففعل ، وهو يومئذ على ولاية مكة[2] . وقد حفل الشعر الأموي بصور واضحة لهذه الجوانب الاجتماعية والفكرية المتعارضة التي لم تكن مقصورة على بيئة دون أخرى ، والتي تؤلف تيارات قوية يتشابك فيها القديم والحديث . فالتيار الأول تيار اللهو والمجون ، كان أظهر ما فيه العودة إلى الخمر التي حرمها الإسلام والمجاهرة بشربها . ومع الخمر تكون بعض مظاهر الانحلال الأخرى التي يشير إليها عبدالله بن أبي معقل الأنصاري مجدداً أسلوب طرفة بن العبد في جاهليته ، وذلك في قوله :

---

(١) الأغاني ٤ : ٢٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ٣ : ٣١٧ .

فلولا ثـلاث هن من عيشـة الفتى وجـدك لم أحـفـل متى قـام رامس
فمنهن تحـريـك الكميت عنـانـه إذا ابتـدر النهب البعيـد الفـوارس
ومـنهن سبق الـعـاذلات بـشـربـة كـأن أخاهـا وهـو يقـظان نـاعس
ومنهن تجـريـد الأوانس كـالـدمى إذا ابـتز عن أكفـالهـن المـلابس[1]

ولم تعد الخمر عند الشعراء الذين اشتهروا بها مجرد لـون من ألوان الفتـك والفتـوة ، مثلما كـانت عنـد طـرفـة ، بـل صـارت جزءاً من حيـاتهم تختلط بأحاسيسهم ومشاعرهم ، ولا يكفون عن التغني بها ووصف آثارها في نفوسهم ، ولا يكتفون بمجرد ذكرها وإدراك غاية فنية بوصفهـا . فعبد الـرحمن بن سيحان (أو ابن أرطاة) لم يكن يصبر عن الشراب ، بل كـان يبيت في دور ندمـائه حتى ظنت امرأته أنه تزوج سواها ، وكان يدعو إلى شربها مجاهرة كما في قوله :

أصبح نـديمـك من صهبـاء صـافية حتى يـروح كـريمـا نـاعم البـال
وأشـرب هـديت أبـا وهب مجـاهـرة واختـل فإنـك من قـوم أولى خـال[2]

وكثيراً ما وصف افتتانه بالخمر حتى تصرعه :

بـات الـوليـد يعـاطيني مشعشعـة حتى هـويت صـريعـا بـين أصحـابي
لا أستـطيـع نهوضـا إن هممت بـه ومـا أنهنـه مـن حـسـو وتـشـراب
حتى إذا الصبح لاحت لي جـوانبـه وليت أسحب نـحـو القـوم أثـوابي
كـأني مـن حمـيـا كـأسـه جمـل صحت قـوائمه من بعد أو صـاب[3]

وحين رأى ابن عم له يشرب نبيذ الـزبيب ، سخر منه قائـلاً : إن كنت تشربه على أن نبيذ الزبيب حلال فإنك أحمق ، وإن كنت تشربه على أنه حرام ، تستغفر الله منه وتنوي التوبة ، فاشرب أجوده ، فإن الوزر واحد .

ثم كتب في ذلك قصيدة يبين فيها فضـل الخمر وقـوة تأثيرها التي تجعـل

---

(١) الأغاني ٢٤ : ١٣ .
(٢) الأغاني ٢ : ٢٥٧ .
(٣) نفسه ٢ : ٢٥٨

شاربها يحس أنه ملك قادر ، وكيف أنه يتعاطاها وأصحابه منذ صلاة العصر حتى صباح اليوم التالي .

يقول ابن سيحان :

دع ابن سريع شرب مامات مرة — وخذها سلافا حية مرة الطعم
تدعك على ملك ابن ساسان قادرا — إذا حرمت قراؤنا حلب الكرم
فشتان بين الحي والميت فاعتزم — على مزة صفراء راووقها يهمي
فإن سريعا كان أوصى بحبها — بنيه وعمى جاوز الله عن عمى
ويا رب يوم قد شهدت بني أبي — عليها إلى أن غاب تالية النجم
حسوها صلاة العصر والشمس حية — تدار عليهم بالصغير وبالضخم
فماتوا وعاشوا والمدامة بينهم — مشعشعة كالنجم توصف بالوهم[1]

ولم يعد الشعر الخمري مجرد أبيات يذكرها الشاعر ضمن قصيدته التي يوجهها لغرض أو أغراض أخرى ، بل صار يستقل بالقصيدة دلالة استحواذه على نفس الشاعر ، وانفعالها بهذه الأحاسيس التي يستشعرها في الخمر .

وقد كثر شعراء الخمريات في العصر الأموي بصورة تتناسب مع انتشار الخمر في بيئات مختلفة : في الحجاز ، والعراق ، والشام ، وخراسان ، بعد أن زال التحرج الديني بشأنها شيئاً فشيئاً عند بعض الناس ، بسبب وجود الفرق المذهبية التي تتصرف تصرفاً واسعاً في مسائل المنع والتحريم ، ولها رأي في درجات الآثام ، ما يكبر منها وما يصغر . وفي عفو الله ومدى اتساعه لهذا الإثم أو ذاك . كذلك كان اختلاف الفقهاء حول تحديد معنى الخمر ، ودرجة تحريمها بابا ولج منه المغرمون بالشراب على سبيل الأخذ بالأيسر من هذه الآراء . ولعل بيئة الكوفة كانت أكثر البيئات الإسلامية إقبالاً على الشراب بسبب موقف أبي حنيفة (١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م) من تحليل النبيذ ، ولكونها أسست على مسافة قليلة من الحيرة ، فانتقل أهل الحيرة من الذميين إليها ، وكانوا مشهورين بتجارة الخمور منذ الجاهلية .

---

(١) الأغاني ٢ ٢٥٧

ويعد الوليد بن يزيد الخليفة الأموي (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م) من أهم شعراء الخمريات الذين نلاحظ في شعرهم سمات التجديد في الشعر الخمري ، وأهم مظاهره استقلاله بمقطوعات لا علاقة لها بفن آخر . وتتميز هذه المقطوعات بقصرها ، ورشاقة وزنها ، ورقة ألفاظها ، وسهولة لغتها بحيث تقترب اقتراباً شديداً من لغة الحياة اليومية .

وكان أبو الهندي (غالب بن عبد القدوس نحو ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) ، والأقيشر (المغيرة بن عبدالله نحو ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م) ، وعمار ذو كبار وأمثالهم من الشعراء الذين ربطوا حياتهم بالخمر وأخلصوا لها ، فجاء شعرهم تعبيراً صادقاً عن عاطفتهم نحوها ، بحيث لا يسمحون لغرض آخر من أغراض الشعر أن يتداخل في هذا التعبير عن هذا الحب للخمر ، إلا أن يكون نتيجة لها كالمجون والتحلل من العقيدة ، وإطراح القيود الاجتماعية المختلفة ، وهذه أمور طبيعية تقترن دائماً بالشعر الخمري في كل عصر وكل بيئة .

يقول الوليد بن يزيد في إحدى خمرياته :

أصدع نجيّ الهموم بالطرب	وأنعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش في غضارته	لا تقف منه آثار محتقب
من قهوة زانها تقادمها	فهي عجوز تعلو على الحقب
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها	من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جوهرها	حتى تبدت في منظر عجب
فهي بغير المزاج من شرر	وهي لدى المزج سائل الذهب
كأنها في زجاجها قبس	تذكو ضياء في عين مرتقب[1]

فالخمر عنده عجوز لقدمها ، وهي مع ذلك أحلى من العروس الجميلة عند عشاقها ، لقوتها وعنف تأثيرها في نفوسهم ، ثم نراه يستخدم مصطلحاً فلسفياً حين جعل جوهرها رقيقاً للدلالة على شدة صفائها وقدمها . أما المزاج فقد أصبح معنى متسعاً يبدع الشاعر في وصفه ، فالخمر نار متقدة إذا كانت

---

(١) الأغاني ٧: ١٩ .

صرفاً، فإذا مزجت بالماء صارت سائلاً من الذهب، وهي تبدو في الكؤوس كأنها شعلة من نور. وكل هذه المعاني تمثل تطوراً جديداً في وصف الخمريات لم يكن موجوداً في العصر الجاهلي.

وأما أبو الهندي فقد عاش متحللاً من كل شيء إلا من حبه للخمر، حتى لقد هاجر إلى خراسان، واستقر بقرية فيها اشتهرت بالخمر، فكان لا يخرج من حانة إلا ليدخل أخرى، ولهذا لم يتسع شعره لغير الخمر. ولعله يعد من هذه الناحية أول شعراء الخمريات في الأدب العربي، وكان عشقه للخمر غريباً حقاً، فهي بالنسبة إليه كاللبن للطفل الرضيع، وهو حليف لها لا يكاد يفارقها:

أديرا على الكأس إني فقدتها ... كما فقد المفطوم در المراضع
حليف مدام فارق الراح روحه ... فظل عليها مستهل المدامع[1]

وهو يدعو الناس جميعاً إلى شربها، لأنها جديرة بالحب، ولأنها تبهج القلوب، والحياة قصيرة تقتنص فيها الملذات اقتناصاً. ولماذا يقبل الناس عليها متحرجين، مع أنهم يرتكبون من الآثام ما هو في رأيه أفظع وأشنع من شربها. ويصف لنا أبو الهندي في شعره إنفاقه كل ما يملك على الخمر ليقضي شهوته منها، ويصف لنا الزق في صور فنية طريفة. وهو في أشعار أخرى يجعل الخمر حبيبة يسمو إليها بعد نوم أهلها، وهو يقبلها فوق الفراش حين ينفحه عطرها، ويصف الأباريق التي تتلألأ في أيدي السقاة، كما يصف السقاة أنفسهم، والمجلس الذي تتردد فيه أصوات العزف والغناء، يقول:

وفارة مسك من عذار شممتها ... يفوح علينا مسكها وعبيرها
سموت إليها بعدما نام أهلها ... غدوا ولما تلق عنها ستورها
سيغني أبا الهندي عن وطب سالم ... أباريق كالغزلان بيض نحورها
مفدمة قزا كأن رقابها ... رقاب الكراكي أفزعتها صقورها
مصبغة الأعلى كأن سراته ... ذبائح أنصاب توافت شهورها

---

(١) الأغاني ٢٠ ١٧٩

تلألأ في أيدي السقاة كأنها	نجوم الثريا زينتها عبورها
أقبلها فوق الفراش كأنها	صلاية عطار يفوح زريرها
إذا ذاقها من ذاق جاد بماله	وقد قام ساقي القوم وهنا يديرها
خفيفا مليحا في قميص مقلص	وجبة خز لم تشد زرورها
وجارية في كفها عود بربط	يجاوبها عند الترنم زيرها
إذا حركته الكف قلت حمامة	تجيب على أغصان أيك تصورها
تجاوب قمريا أغن مطوقا	شقائقه منشورة وشكيرها[1]

وإلى جانب هذا الشعر الخمري الذي يصور جانباً من التيار اللاهي في الشعر الأموي ، وجد شعر المجون والتحلل الأخلاقي ، حتى إن الأقيشر الأسدي (وكنيته أبو معرض) لا يتحرج من أن يقول عن نفسه :

أجل الحرام أبو معرض	فإن ليم في الخمر لم يبصر
يجل اللئام ويلحى الكرام	وإن أقصروا عنه لم يقصر[2]

وهذا اللون من الشعر يخوض في كل ما يعف الإنسان عن ذكره ويحتشم منه ، والجنس مداره بطبيعة الحال ، وخاصة ألوان الشذوذ فيه ، وقد يتضمن أحياناً شيئاً من الدعابة البريئة، كمخاطبة الأقيشر بغل جار له يكنى أبا المضاء كان يكتريه فيركبه إلى الحيرة ليشرب ويطرب :

يا بغل أبي المضاء تعلمن	أني حلفت وللبمين نذور
لتوسفن وإن كرهت مهامها	فيها أحب وكل ذاك يسير
بالرغم يا ولد الحمار قطعتها	عمدا وأنت مذلل مصبور
حتى تزور مسمعا في داره	وترى المدامة بالأكف تدور
لا يرفعون بما يسوءك نفرة	وإذا سخطت فخطب ذاك يسير[3]

ويشتد التحلل أحياناً في هذا التيار اللاهي حتى ليصبح إلحاداً وزندقة

---

(١) طبقات الشعراء المحدثين: ١٩١.
(٢) الأغاني ١١: ٢٥٣٠.
(٣) الأغاني ١١: ٢٦١.

وإنكاراً لقواعد الإسلام ، فالوليد بن يزيد ينكر البعث في بعض شعره إنكاراً صريحاً ، وفي شعر له آخر يظهر عدم إيمانه واستهتاره بالدين ومجاهرته بارتكاب المحرمات وعزمه على صرف الناس عن دينهم الصحيح ، وذلك في قوله :

أسقياني وابن حرب واسترانا بإزار
واتركا من طلب الجنة يسعى في خسار
سأسوس الناس حتى يركبوا دين الحمار[1]

وقد يتضمن الشعر بعض العقائد المنحرفة عن الإسلام ، ولكن بصورة خافية لا مجاهرة فيها ، كما لاحظ بعض الأقدمين في أبيات يرثي بها ابن المقفع (١٤٤ هـ/ ٧٥٩ م) أحد أصدقائه المارقين ويقول فيها :

رزئنا أبا عمرو ولاحي مثله فلله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلة ما في انسداد لها طمع
لقد جر نفعا فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع[2]

فقد ذكروا أن البيت الأخير يدل على مذهب الثنوية في أن الخير ممزوج بالشر ، والشر ممزوج بالخير .

وقد أعانت على ظهور هذا الإتجاه المتزندق في الشعر الأموي تلك الفرق المنحرفة التي انبثقت أصلاً من الفرق الإسلامية ، ثم دخلتها مذاهب ومعتقدات أجنبية حاول الشعوبيون عن طريقها أن يحطموا الوحدة الإسلامية .

وفي مقابل هذا التيار اللاهي بألوانه المختلفة وجد الزاهدون المتعبدون الذين زادتهم الإضطربات السياسية والصراع المذهبي وحياة الترف واللهو والتحلل الأخلاقي إمعاناً في الفرار من هذا المجتمع ، وعكوفاً على العبادة . وأعانهم على اتجاههم السلوك المثالي للمسلمين الأوائل الذين كانت حياتهم مضرب المثل في الورع والتقشف وكراهية الدنيا ، ثم هذا الإقبال من جانب

---

(١) أمالي المرتضى ١: ٨٩.
(٢) المصدر نفسه ١: ٩٤.

علماء المسلمين على كتابهم المقدس وسنة نبيهم يتدارسونها ، ويستنبطون منهما أصول الشريعة ، حتى تهيأ للمسلمين في العصر الأموي ذخر عظيم من الدراسات الإسلامية التي تدل على دقة الفكر ، والرقي العقلي ، وصحة الإيمان . وإذا كانت بعض الفرق المنحرفة قد أحدثت تأثيراً سيئاً بظهور التحلل الديني فيها ، فالفرق الإسلامية الأصيلة أعانت على ظهور تيار الزهد الذي ظهر قوياً في الشعر الأموي . فالخوارج بالرغم من خطأ اعتقادهم بالنسبة لتكفير المسلمين الآخرين ، كانوا على درجة كبيرة من التقوى والخشوع لله ، والتجهد وقيام الليل ، وإظهار بغضهم للدنيا ، وإيثارهم الآجلة على العاجلة . كذلك نجد هذا التيار الزاهد في شعر الشيعة ويتمثل بصفة خاصة في شعر أبي الأسود الدؤلي في مثل قوله :

وإذا طلبت من الحوائج حاجة	فادع الإله وأحسن الأعمالا
فليعطينك ما أراد بقدرة	فهو اللطيف لما أراد فعالا
إن العباد وشأنهم وأمورهم	بيد الإله يقلب الأحوالا
فدع العباد ولا تكن بطلابهم	لهجا تضعضع للعباد سؤالا[1]

ثم نجد هذا التيار الزاهد يسري في طوائف القراء والفقهاء والمحدثين ، والوعاظ والقصاص ، حتى لتؤلف في هذا العصر أوائل كتب المواعظ والزهد ونجد في شعر عروة بن أذينة فقيه المدينة ومحدثها تعبيراً عن قناعته وقوة إيمانه في مثل قوله :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي	أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه	ولو جلست أتاني لا يعنيني
وإن حظ امرىء غيري سيبلغه	لا بد لا بد أن يحتازه دوني
لا خير في طمع يدني لمنقصة	وغفة من قوام العيش تكفيني
لا أركب الأمر تزري بي عواقبه	ولا يعاب به عرضي ولا ديني
كم من فقير غني النفس تعرفه	ومن غني فقير النفس مسكين[2]

(١) الأغاني ١٢ : ٣٠١.
(٢) الأغاني ١٨ : ٣٢٥.

وكذلك نجد شعراء آخرين من غير هذه الطوائف قد مستهم هذه النفحة القوية من الإيمان والزهد في الدنيا ، واستهوتهم فضائل الأخلاق التي حث عليها الإسلام . ومن هؤلاء مسكين الدارمي (ربيعة بن عامر) الذي يكثر في شعره من العظة والنصيحة ، ومن ذلك قوله في اتقاء الأحمق ، والبعد عن الفحش :

اتق الأحمق أن تصحبه ... إنما الأحمق كالثوب الخلق
كلما رقعت منه جانبا ... حركته الريح وهنا فانخرق
أو تصدع في زجاج فاحش ... هل ترى صدع زجاج يتفق
وإذا جالسته في مجلس ... أفسد المجلس منه بالخرق
وإذا نبهته كي يرعوي ... زاد جهلا وتمادى في الحمق
وإذا الفاحش لاقى فاحشا ... فهنا كم وافق الشن الطبق
إنما الفحش ومن يعتاده ... كغراب السوء ما شاء نعق
أو حمار السوء إن أشبعته ... رمح الناس وإن جاع نهق
أو غلام السوء إن جوعته ... سرق الجار وإن يشبع فسق(١)

ومن هؤلاء الشعراء الذين يفيض شعرهم بالتقوى والدعوة إلى الزهد في الدنيا ، والتنفير من متاعها الزائل سابق بن عبدالله البربري وهو يكثر من الحديث عن الموت حتى يتعظ الإنسان ويكف عن شهواته كما في قوله :

إذا الجسد المعمور زايل روحه ... خوى وجمال البيت يانفس آهله
وقد كان فيه الروح حينا يزينه ... وما الغمد لولا نصله وحمائله
إذا الأرض خفت بعد ثقل جبالها ... وخلى سبيل البحر يا نفس ساحله
فلا يرتجى عوننا على حمل وزره ... مسيء وأولى الناس بالوزر حامله(٢)

ولما كان هذا اللون من شعر الزهد مقصوداً به العظة والنصح نجده قريب المعاني ، سهل الألفاظ ، بعيداً عن التعقيد والإغراب . وهو أقرب ما يكون إلى لغة الحياة اليومية ، شأنه في ذلك شأن كل أنواع التعبير الذاتي المباشر ، التي لا

---

(١) خزانة الأدب ٣: ٢١١ .

(٢) انظر تاريخ الشعر لابن عساكر ٦: ٤٠ .

يعني فيها الشاعر بالتنميق والتجويد والإغراب ليعجب الرواة والعلماء ، ويدهشهم بثقافته وفصاحته وبيانه ، بل كل غايته إرضاء نفسه ، وإمتاع عامة الناس بشعره وإبلاغهم ما جاش بنفسه من معان ، تبصرهم بطريق الحق والهداية .

الشعر الأموي بين القديم والجديد :

كان العصر الأموي قريب عهد بالتقاليد العربية الجاهلية في شتى مناحي الحياة سلوكاً وتفكيراً وتعبيراً . ولكن عوامل الحضارة القوية كانت تجذبه إلى آفاق جديدة ، وتحيي فيه قوة الإبداع ، فكان يستجيب تارة للقديم الذي ورثه وتغلغل في أعماقه ، وتارة أخرى لعوامل التجديد التي تدعوه للإبتكار والتوليد .

وتمثلت في الشعر الأموي هاتان الظاهرتان ، فوجدنا جانباً تقليدياً يحاكي الشعر الجاهلي في نهج القصيدة وبنائها الفني ، وفي موضوعات الشعر المحددة التي تكاد تلتزم بها القصيدة التزاماً ، وفي لغة الشعر وموسيقاه ، بل في كل جزئيات الشكل والمضمون ، حتى ليحس القارىء في مثل هذا الشعر امتداداً واضحاً للجاهلية بكل تقاليدها الفنية ، وكأن الشعراء لم يتغيروا خضوعاً للمؤثرات الإسلامية والعوامل الحضارية .

وقد نلحظ بعض التغير في هذا الشعر التقليدي حين نلمح الأثر الإسلامي واضحاً في نفس الشاعر ، فيستمد من القرآن الكريم بعض المعاني والأفكار ، ولكن هذا التأثير جزئي محدود كما نرى في مدح كثير بن عبد الرحمن لعمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ/ ٧٢٠ م) الذي يقول فيه :

نزور امرءا أما الإله فيتقى ... وأما بفعل الصالحين فيأتمى

وفي الحلم والإسلام للمرء وازع ... وفي ترك طاعات الفؤاد المتيم

بصائر رشد للفتى مستبينة ... وأخلاق صدق علمها بالتعلم

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... بريا ولم تقبل شهادة مجرم

وأظهرت نور الحق فاشتد نوره ... على كل لبس بارق الحق مظلم

وصدقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيت فأمسى راضيا كل مسلم

وقـد لبسـت لبس الملوك ثيـابهـا تـراءى لـك الـدنيا بكف ومعصم
وتـومض أحيانـا بعين مـريضـة وتبسم عن مثـل الجمـان المنـظم
فـأعرضت عنهـا مشمئزا كـأنما سقتـك مدوفـاً من سمـام وعلقـم
ومـا زلت تـواقـا إلى كـل غـايـة بـلغت بهـا أعـلى البنـاء المقـدم
فلما أتـاك الملك عفـوا ولم يكـن لـطالـب دنيـا بعـده من تـكـلم
تـركت الـذي يفنى وإن كـان مـونقا وآثـرت مـا يبقى بـرأي مصمم[1]

فالشاعر هنا يتخلى عن الأوصاف الحسية المعروفة في المديح ، كالطول ووضاءة الوجه ، والفضائل الجاهلية التي كانت لا تزال أصداؤها في الشعر الأموي ، ويلتزم الصدق والفضائل الإسلامية العامة ، والشمائل التي كان يتحلى بها عمر خاصة من العدل والحلم والإمتناع عن سب علي بن أبي طالب على منابر المساجد ، كما اعتاد الخلفاء الأمويون أن يفعلوا ، والبعد عن الظلم والجبروت ، والزهادة في الدنيا وأبهة الحكم بكل ما فيهما من مغريات ، على الرغم من التزام الشاعر نهج القصيدة الجاهلية ، فقد بدأ مدحه ببكاء الأطلال ، وعلى الرغم من أنه في مدائحه لغير عمر بن عبد العزيز يلتزم الأوصاف الجاهلية المثالية في المديح .

وبعض الموضوعات التي كان الشعراء يتناولونها مثل المديح ، كانت تفرض التمسك بالتقاليد الفنية القديمة وعدم تجاوزها ، وقد رأينا أن النقائض التزمت في مضمونها وشكلها ما عرف من نظامها في الجاهلية ثم في صدر الإسلام ، على الرغم من أنها أصبحت في العصر الأموي فناً منظماً متصلاً يراد به المناظرة العقلية حينا ، واللهو والإضحاك والتسلية حيناً آخر . وحتى بعد جيل جرير والفرزدق والأخطل ظلت النقائض جاهلية في مضمونها وشكلها معتمدة على الصراع القبلي القديم ، وتتمثل ذلك في النقائض التي كانت بين ابن ميادة (الرماح بن أبرد ١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م) والحكم الخضري (نحو ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م) .

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٣١٧ .

أما الهجاء في غير النقائض فقد تطور في العصر الأموي في أسلوبه ومعانيه فاقتصر في معظمه على مقطعات صغيرة ، ومال إلى الشعبية التي تجعله قريباً من نفوس الجماهير سهل التداول ، واعتمد على ألوان من الإيقاع الذي يكفل له سرعة الإنتشار والتردد ، وابتعد عن دائرة القبيلة ليخوض في نقد الحياة الاجتماعية والسياسية . وكثيراً ما تعرض الخلفاء أنفسهم كما فعل محمد بن عرادة في هجاء يزيد بن معاوية (٦٤ هـ/ ٦٨٣ م)[1] بسبب إغراقه في اللهو ، والانكباب على الملذات ، وكما فعل الكميت بن زيد في هجاء خلفاء بني أمية جميعاً لظلمهم وتعطيلهم أحكام الشريعة[2] . كذلك كانت شخصية الوليد بن يزيد بخلاعته واستهتاره مثار هجاء عنيف من الشعراء ، كقول حمزة بن بيض (١١٦ هـ/ ٧٣٤ م) فيه :

يا وليدا الخنا تركت الطريقا	واضحا وارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرفت	وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهاتى	ثم هاتى حتى تخر صعيقا
أنت سكران ما تفيق فما	ترتق فتقا وقد فتقت فتوقا[3]

ومضى شعراء الرثاء على طريقته التي ورثها من الجاهلية ، فلم يحدث فيه تجديد ، إلا من حيث اختلاف طبيعة المرثى ، فكان رثاء الشيعة لقتلاهم ، وكذلك الخوارج يتضمن الإشادة بمذهبهم لتصوير قتلهم بأنه استشهاد في سبيل العقيدة ، وكان رثاء المغنين والملهين يتضمن التفجع على آلات الموسيقى والطرب ، وانقضاء عالم المرح .

كذلك كان شعر الوصف تقليديا محضاً ، على الرغم من ظهور أوصاف بعض البيئات الجديدة التي لم يألفها العرب من قبل ، وظلت الصحراء مسيطرة على إحساس الشاعر الأموي مثل أسلافه ، ويعد ذو الرمة (غيلان بن عقبة

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٧: ٤٣.
(٢) الهاشميات: ١١١ .
(٣) الكامل لابن الأثير ٥: ١١٣.

١١٧ هـ/ ٧٣٥ م) من أهم عشاق الصحراء بكل ما فيها من طبيعة حية وساكنة ولكنه لم يأت في وصفه بجديد ، إلا في بعض الصور الجزئية القليلة التي تنم عن تأثر حضاري ، في حين أنه كان يضمن شعره أبياتاً للشعراء السابقين .

يصف ذو الرمة الناقة وحمار الوحش والظباء والثور الوحشي بأسلوب بدوي خشن يقرب من أسلوب الشماخ بن ضرار في الجاهلية ، ونراه يصف الصحراء فينفعل برهبة الليل فيها وعزيف الجن في جنباتها كما تشيع ذلك الأساطير ، حتى لتبدو الأصوات المتخالفة بحراً للروم يزخر برطانتهم غير المفهومة ، يقول :

بين الرجا والرجا من جنب واصية ... يهماء خابطها بالخوف مكعوم
للجن بالليل من حافاتها زجل ... كما تجاوب يوم الريح عيشوم
هنا وهنا ومن هنا لهن بها ... ذات الشمائل والإيمان هينوم
دوية ودجى ليل كأنهما ... يم تراطن في حافاته الروم[1]

والتفت الشعراء الأمويون إلى بحر الرجز القديم فأحيوا استخدامه في أغراض شتى من الشعر وأطالوا فيه . ولم يكن الرجز في الجاهلية غير مقطعات صغيرة تصور موقفاً مرتجلاً في الهجاء والحرب خاصة ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يقبلون على استخدامه فدواوين زهير والنابغة الذبياني وعنترة تخلو منه ، بينما نجد مقطعات صغيرة في ديواني أمرىء القيس ولبيد . وكان الأغلب العجلي (٢١ هـ/ ٦٤٢ م) في عصر صدر الإسلام هو أول من أطال الرجز ، ونبه بذلك إلى إمكان استخدامه بصورة واسعة في شتى الأغراض التي يستخدم فيها الشعر . ونجد الشعراء الأمويين البارزين من أمثال جرير والفرزدق ، والأخطل والبعيث (خداش بن زهير ١٣٤ هـ/ ٧٥١ م) وذي الرمة ، يستخدمونه بصورة محدودة . ثم عني به الشمردل بن شريك اليربوعي (نحو ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م) عناية خاصة في شعر الصيد ، وكتب أراجيز كثيرة في وصف الصقر والكلب ، وتبعه في ذلك الاتجاه أبو نخيلة السعدي (نحو

(١) ديوان ذي الرمة: ٥٧٥.

١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م) الذي يصف في أرجوزة له مطاردته بجواده عشر نعائم ، تماماً كما كان يفعل سلفه الجاهلي ، يقول :

أنعت مهراً سبط القراة ... ورداً طمراً مدمج السراة
يغدو بنهد في اللحام عات ... نعائماً عشراً مطردات
صك العراقيب هجنعات ... فانصاع وانصعن موليات
ما كان إلا هاكه وهات ... حتى اجتمعن متناعضات
بالسهب والغدر من الحماة ... واختل حضناً هيقة شوشات
فانعقرت من آخر الهيقات ... بغير تكبير ولا صلاة
كأنها خالفة السراة[١]

ونلاحظ على لغة شعر الطرد خاصة ، والأراجيز بصفة عامة جنوحاً إلى الغريب واستخدام الألفاظ الوحشية . وكأني بالشاعر الأموي قد أحس أنه في شعر الطرد يرتد إلى العصر الجاهلي بيئة وموضوعاً ، لهذا كان يصطنع هذه اللغة الجاهلية في طردياته اصطناعاً ليكمل صورة هذا النوع من الشعر بالملاءمة بين الشكل والمحتوى .

وقد حاول الرجاز الأمويون الارتفاع بالأرجوزة إلى مستوى القصيدة الشعرية ، فالتزموا منهج القصيدة ، واستهلوا أراجيزهم ببكاء الأطلال والنسيب ، ثم تابعوا وصف الرحلة في الصحراء ، ثم أوسعوها للمديح والفخر والهجاء ، إلى جانب وصف الحيوان والصيد . ووسعت بعد ذلك تجارب ذاتية غنية ، وحكايات طريفة تبعث على التسلية والضحك . وتراوحت لغة الرجاز - بعد اتساع موضوعات أراجيزهم - بين الغرابة اللغوية كما نجد عند العجاج (عبد الله بن رؤبة نحو ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) ، وابنه رؤبة (١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م) ، وسهولة الألفاظ وبعدها عن الغريب كما نجد عند أبي نخيلة ، وقد يتوسط الراجز بين الأمرين كما نجد في أراجيز الزفيان (عطاء بن أسيد نحو ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م) الذي يفخر في أرجوزة له فيقول :

---

(١) طبقات الشعراء المحدثين: ٦٤.

إني إذا ما صاحبي استبدا بالأمر من دوني واسمعدا
أتركه وسط الرجال عبدا موطناً على الهوان فردا
يرتكب الغي ويخطي الرشدا إذا تميم حشدت لي حشدا
كزاخر البحر إذا ما مدا لم يرزأ الأعداء مني زندا
على عناجيج الخيول جردا[1]

ويبث العجاج في كثير من أراجيزه صوراً من حياته وتجاربه الذاتية ، فهو يصف شيبه وعلو سنه وإعراض النساء عنه في قوله :

إن الغواني قد غنين عني وقلن لي عليك بالتغني
عنا فقلت للغواني إني على الغنى وأنا كالمظن
لما لبسن الحق بالتجني غنين واستبدلن مني
غر انقاذا بشر مكتن يرضي ويرضيهن بالتمني
إذ شاب رأسي ورأين أني حنى قناتي الكبر المحني
وصرت مثل البازل المقون وقلن لي أفناك طول السن
وبرهة من دهرك المفني مع الهوى وقلة التوني[2]

كذلك فعل ابنه رؤبة الذي يتضمن ديوانه تجارب ذاتية مختلفة . فيها ذكريات الأمس الغابر الذي كان مملوءاً بالسعادة ، وفيها الشكوى من النكبات التي حلت بساحته ، والفقر الذي ألم به . وله أرجوزة ذات حس إنساني رهيف في عتاب ابنه عبد الله ضمنها بعض الحكم العامة التي يتأثر فيها بالتيار الزهدي الذي رأينا آثاره في الشعر الأموي ، يقول :

إنك لا تدري غداً ما في غد وليلة تطرد إن لم تطرد
والقوم يهوون حيال المورد والله لا يخلف وقت الموعد
والمرء مرقوب بكل مرصد يروح في حبك البلى ويغتدي
ومن أمام المرء مرداه الردى واصدق إذا ما قلت قولاً واقصد

---

(١) مجموع أشعار العرب ٢: ٩٣.
(٢) الشعر والشعراء: ٣٧٥.

فليس من جار كهاد يهتدي | إن السعيد عامل للأسعد
والرشد فاعلمه طريق الأرشد | وزاد تقوى أفضل التزود
إني رأيت الدهر بالتردد | ينقض إمرار الشباب الأجرد
نقضك إمرار المرار المحصد[1]

واستخدم الرجز في قصص ونوادر طريفة ، تجري في الحياة العامة ، مما يدل على استمرار شعبية الرجز ، وهي صفة كانت غالبة عليه منذ العصر الجاهلي . وكان أحد الرجاز من الأعراب في العصر الأموي واسمه رديني بن عبس الفقعسي قد اشترى ثياباً من رجل فارسي يبيع البز بالكوفة يقال له سالم بن مهران ، واستنظره في الثمن أياماً ، فطالت المدة ، وعلم التاجر أن هذا الأعرابي قد أتى إلى الكوفة ، فوافاه وجماعة من أهل السوق ، وطالبه بحقه ، فأنكره ، فاستحلفه بالطلاق ، فحلف له ، حتى يخلي سبيله ، فقال في تلك القصة رجزاً بعد فيه عن الإغراب ، وحشد لقصته معظم مقوماتها الفنية من سرد الأحداث ، ورسم الشخصيات ، وإجراء الحوار ، قال :

لما أتاني سالم بالطرس | مبتكراً قبل طلوع الشمس
أطلس في وسط ذئاب طلس | شيوخ سوء من نتاج الفرس
يرون للأعراب كل نحس | جنسهم الأعلاج غير جنسي
فكلموني بكلام الخرس | وهددوني ساعة بالحبس
حتى إذا خفت ذهاب نفسي | من لكزة تابعة لرفس
قلت لهم قولاً مبين اللبس | يقبله كل غبي نكس
أعطيكم المال بغير بخس | وغير نقصان وغير وكس
من جلب جاء غداة أمس | فقال شيخ منهم كالقس
ذو لحية وافرة كالترس | كأنها مخلوقة من برس
هيهات أن تفلت يا ابن عبس | إلا بوزن أو يمين غمس
فقلت لا والله باري النفس | أحلفها حتى أزور رمسي

---

(1) مجموع أشعار العرب ١: ٤٩، ٥٠.

خديعة أشوبها بدنس فحين طال حبسهم وحبسي

أفلت منهم بطلاق عرسي[1]

وقد بلغت صناعة الرجز على أيدي العجاج وابنه رؤبة قمتها الفنية ، وإحكامها الموسيقي ، فكانت أراجيزهما سالمة من العيوب التي تكون عادة في الرجز مثل الإقواء والإكفاء والإيطاء ، كما أن ذخيرتهما اللغوية الهائلة مكنتهما من الإطالة في الأراجيز ذات القوافي الصعبة . وقد لاحظ الأقدمون قدرة العجاج على صياغة أراجيزه بالتزام النظام الذي يراه ، حتى إن أرجوزته (قد جبر الدين الإله فجبر) التي تضم تسعة وعشرين ومائتي بيت موقوفة القوافي لو أطلقت قوافيها لكانت كلها منصوبة .

ولا شك أن الشعراء عامة في العصر الأموي قد أخذوا يهتمون بصناعتهم الشعرية متأثرين في ذلك بفنون الحضارة التي شاعت من حولهم ، وبتأثير انتشار الغناء والموسيقى في البيئات المختلفة ، ولهذا نرى الشعراء يهتمون اهتماماً بالغاً بموسيقى شعرهم ، ويحدثون فيه أنواعاً جديدة من الإيقاع المنتظم ، مثل هذه القوافي الداخلية المتناغمة التي يرصع بها خالد بن صفوان القناصي قصيدته المسماة (العروس) حيث يقول :

دار لجارية حوراء لاهية كالشمس ضاحية في حسن جنان

بالوصل راضية عهدي مواتية عني محامية تجفو وتنساني

هركولة بهر تختال في طرر تشفيك من أثر غراء مفتان

علت مآليها منها عواليها تأوى علاليها في ستر أكفان

كحلاء في دعج عيناء في برج نجلاء في زجج تسلو وتقلاني

شغباء في بهج لمياء في فلج خدلاء في بلج أدنو وتنآني[2]

وتمضي القصيدة التي تضم ثمانية وسبعين بيتاً على هذه الصورة من الالتزام الموسيقي الذي يكشف عن تكلف شديد في صناعة الشعر ، ربما فتح

---

(١) حماسة البحتري: ٤٢٢.

(٢) الطرائف الأدبية: ١٠٥، ١٠٦.

الطريق فيما بعد لشعراء الأندلس لابتكار الموشحات .

وقد رأينا من قبل كيف تلاعب جرير في هجائه بالإيقاع ليلائم بموسيقاه هذه المعاني الساخرة التي أراد أن ينال بها من خصمه .

وقد استحدث شعراء الغزل ألواناً جديدة من الإيقاع تتناسب مع الغناء ومع هذه السهولة المفرطة في الألفاظ التي تقترب من لغة الحياة اليومية . واستكثروا من النظم في بحور قصيرة كالوافر والمديد والسريع والخفيف ، والرمل والهزج والمتقارب ، واستخدموا أيضاً ما يأتي في هذه البحور من مجزوء ، فإذا جاءت أشعارهم في بحور طويلة كالبسيط والطويل استحدثوا فيها إيقاعات تجعلها مجزءة الأنغام ، سريعة الحركة .

ولم يؤثر الغناء وحده في الشعر الأموي الذي مسته رياح التجديد ، بل أثر فيه الرقص أيضاً الذي كان يجري في بعض البيئات المتحللة ، ومما يؤثر عن يزيد بن عبد الملك (١٠٥ هـ / ٧٢٤ م) أنه كان يردد مع جواريه انتشاء وهم يرقصون :

يا دار دوريني يا قرقر امسكيني
آليت منذ حين حقاً لتصرميني
ولا تواصليني بالله فارحميني
لم تذكري يميني

فإذا قارنا مثل هذه الأشعار المجددة بلغتها وموسيقاها وصورها ، مما نجده عند الشعراء الأمويين الملتزمين النهج التقليدي للشعر العربي ، أدركنا أن الشعر الأموي كان يتجاذبه تياران واضحان : تقليد وتجديد ، وأن التجديد كان يشمل المضمون والشكل .

ومن الطبيعي أن يحدث تلاؤم بين موضوع الشعر ونظمه ، بل يفرض الموضوع في أحيان كثيرة طبيعته على لغة الشعر وموسيقاه وصوره التعبيرية . ويحدد مدى علاقته بالطبقة العالية في المجتمع أو عامة الناس . وقد رأينا أن شعر الغزل في العصر الأموي يمثل تياراً شعبياً جديداً ، بينما ظل شعر السياسة

والمديح يمضي على السنن التقليدي المتعالي عن متناول عامة الناس ، أما الشعر المذهبي فكان بحكم طبيعته تياراً فكرياً جديداً لا يعني به إلا الخاصة من المثقفين ، وكان شعر النقائض تقليدياً في موضوعه ونهجه ، ولكنه اقترب في جانبه الهجائي من الروح الشعبية .

إن حياة الشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الأول حافلة بالاتجاهات الفنية وبالعديد من الشعراء المبدعين في شتى الموضوعات ، وهي حياة تقدر قيمتها بالعرض لا بالطول ، وقد استطاعت أن تعبر أجمل تعبير وأقواه عن حياة العرب في جاهليتهم ثم في عهدهم المتحضر الذي بددت ظلام الجهل والبداوة فيه شمس الإسلام ، وكان الشعر ديوان العرب في جاهليتهم ومنتهى حكمهم ، ثم صار في الإسلام أداة فكر وإمتاع ومعرض ثقافة ووجدان ومرآة للحياة بكل ما فيها من طموح إنساني . وعلى هذ الدرب سار ليستأنف حياته في القرون التالية مواكباً لحياة العرب وفكرهم وتجاربهم في الحياة .

الاسلام والشعر

في تاريخ الأدب العربي قضايا قائمة على افتراضات ، ولكنها اتخذت شكل المسلمات الثابتة التي لا شك فيها ، ومن ذلك قضية الإسلام والشعر . ومضمونها الذي تردد وكأنه حقيقة ثابتة أن الإسلام منذ أن ظهر في الجزيرة العربية وأشرق بنور قرآنه ، استطاع أن يطفىء نار الشعر التي ظلت مشتعلة طوال العصر الجاهلي ، وكان يؤرثها شعراء فحول ذهبوا في القول كل مذهب ، وعقم عصر الرسول والخلفاء الراشدين أن ينجب مثلهم .

تلك هي القضية التي وقرت في نفوس الباحثين منذ وقت بعيد ، ولعل مرجعها الأول كلمة للأصمعي قالها منذ القرن الثاني الهجري ورواها عنه ابن أخيه قال : الشعر نكد ، يقوى في الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان . ثم استشهد على صحة نظريته بحديثه عن حسان بن ثابت فقال : هذا حسان فحل من فحول الشعراء في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره[١] .

وشارك بعض الباحثين الأقدمين في تثبيت فكرة الأصمعي عن طريق إبداع مبررات لها ، فقال محمد بن سلام الجمحي « فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته[٢] ثم جاء ابن خلدون بعده فقال (أعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب ،

---

(١) انظر الاستيعاب ١: ١٢٧.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢.

فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم . . ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر)[1] .

وانساق وراء هذه الفكرة دون تمحيص كثير من الباحثين المحدثين على اختلاف منازعهم ونحلهم فهذا جورجي زيدان يقول « أكثر شعراء الجاهلية من الفرسان والأمراء وأهل الحرب ، وأكثر أشعارهم في الفخر والحماسة بما بين قبائلهم من التنازع ، ومرجع ذلك كله إلى العصبية ، كل قبيلة تطلب الفضل لنفسها على سواها ، فلما جاء الإسلام وجمع كلمة العرب ، وذهبت العصبية الجاهلية لم تبق حاجة إلى الشعر والشعراء ناهيك باشتغال أهل المواهب والقرائح بالحروب في الجهاد لنشر الإسلام وبالأسفار، وقد أدهشتهم أساليب القرآن، وأخذتهم النبوة ، وانصرفت قرائحهم الشعرية إلى الخطابة لحاجتهم إليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد[2]) .

وبعد زيدان بسنوات طويلة نجد باحثاً يسرف في تأكيد هذه الدعوى فيقول (إن شعر صدر الإسلام هو النهاية الضعيفة الذابلة والمنحرفة للشعر الجاهلي وهو يمثل عقابيل المعركة بين الحياة الإسلامية وبين الحياة الجاهلية ، فأما الشعراء الذين ظلوا يقولون الشعر فقد كانوا يحاولون التكيف مع هذه الحياة الجديدة والانسياق في مفاهيمها . . وليس أدل على ذبول الشعر من أننا لا نرى هنا ما كنا نرى في العصر الجاهلي . . إننا لا نجد في شعراء هذه الفترة شاعراً في فحولة طرفة ، أو إبداع امرىء القيس ، أو ترانيم عنترة ، أو كياسة النابغة[3] .

ومثل هذه الأقوال ينبغي أن تكون موضع نقد شديد ، لأن أصحابها لم ينتهوا إليها بعد دراسة شعر صدر الإسلام بجوانبه المختلفة ، ولكنهم اقتصروا على بعض الأسماء المعروفة كحسان والحطيئة وأضرابهما ، ثم انساقوا إلى تأييد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١: ١١٢٢.
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٩٥، ١٩٦.
(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ١٩٠.

الفكرة القديمة ، وكان على هؤلاء الباحثين أن يضعوا في اعتبارهم عند تقويم شعر صدر الإسلام مسائل عديدة .

أولاً : أنه لا مجال للمقارنة بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي أيام الرسول والخلفاء الراشدين من ناحية الكم ، فالشعر الجاهلي قيل في مدى مائة وخمسين عاماً على الأقل ، بينما لا تزيد مدة عصر الرسول وخلفائه الراشدين على أربعين سنة .

ثانياً : لا ينبغي الاقتصار على دراسة شعراء المسلمين ، بل يجب تجاوزهم إلى دراسة شعراء المشركين وهنا تقابلنا مشكلة ينبغي أن تكون في الحسبان ، ألا وهي ضياع معظم هذا الشعر لسقوط روايته لما يتضمن من هجاء الرسول والمسلمين ، أو للتشاغل عن روايته إن لم يكن يتضمن هجاء .

ثالثاً : إن معظم الشعراء المخضرمين الذين ثارت حولهم الشبهة في أنهم استمروا في قول الشعر بعد الإسلام ـ وكانوا من فحول الجاهلية مثل لبيد بن ربيعة ـ لم ينقطعوا عن الشعر بدليل ما في دواوينهم ، فاسقاطهم من حساب عصر صدر الإسلام فيه عنت كثير .

رابعاً : إن هناك مجموعة ضخمة من شعراء المسلمين لم تهتم بهم كتب الأدب ولم تروِ أشعارهم ، ولكننا نجد الكثير من شعرهم في كتب طبقات الصحابة . وتسليط الضوء على هؤلاء وعلى شعرهم سيكون ذا فائدة كبرى في عدالة تقويم شعر ذلك العصر المفترى عليه .

خامساً : حفلت الفتوحات الإسلامية بشعر حماسي رائع لم يهتم بجمعه مؤرخو الأدب ، مع أنه يمثل جانباً مهماً لا ينبغي اغفاله عند تأريخ شعر صدر الإسلام ورصد اتجاهاته ، ومحاولة مقارنته بالشعر الجاهلي .

وقبل أن نمضي في تحليل هذه النقاط جميعها ، يجب علينا أن نتوقف قليلاً لنناقش أساساً مهماً في قضية الإسلام والشعر ، وهو موقف الإسلام أساساً من الشعر والشعراء .

لقد ورد ذكر الشعر في القرآن الكريم في عدة مواضع تنفي كون التنزيل

الكريم شعراً أو أن الرسول شاعر ، قال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾[1] وقال ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ، بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾[2] وقال ﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾[3] . وقال ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾[4] وقال ﴿ إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾[5] .

وتنزيه القرآن الكريم عن أن يكون شعراً ، أو أن يكون الرسول شاعراً ليس طعناً على الشعر بأية صورة من الصور ، ولا غضاً من قيمته ، فالأمر لا يخرج عن كونه اقراراً لواقع ثابت لا شك فيه . فالقرآن صورة بيانية فريدة تبعد كل البعد أن تكون شعراً أو سجعاً كسجع الكهان ، وهما لونان معروفان عند العرب في الجاهلية ، وكان المشركون من العرب يريدون التهوين من شأن معجزة الرسول فيصفون القرآن بالشعر ، ولهذا جاءت الآيات كلها في نفي أن يكون القرآن شعراً منسوبة إلى مشركي العرب ، ورداً على افتراءاتهم ، ولهذا أيضاً نجد أن جميع هذه الآيات مكية ، للدلالة على نزولها في وقت المعارضة الشديدة من جانب قريش .

وقد حاول بعض الباحثين أن يثبتوا وجود شعر في القرآن ، وقد صرح المستشرق « بروكلمن » بأن محاولات نحاة العرب[6] التي كررها المستشرق « جريئة » للكشف عن أبيات شعر في القرآن لم تكن مثمرة[7] ، كما أن نظرية « مولر » التي أيدها « جاير » وهي أن قالب القرآن من القوالب الشعرية قد رفضها « نادكه »[8] . ولكن هدف الباحثين العرب كان مختلفاً كل الاختلاف

---

(١) يس: ٦٩.
(٢) الأنبياء: ٥.
(٣) الصافات: ٣٦.
(٤) الطور: ٣٠.
(٥) الحاقة: ٤٠، ٤١.
(٦) انظر المزهر للسيوطي ١: ٢٩١، ٢٣٤، فقه اللغة لابن فارس: ١٣٠.
(٧) تاريخ الأدب العربي ١: ٨١٣٧
(٨) المصد نفسه.

عما رمى إليه المستشرقون فالباحثون العرب كان همهم أن يرصدوا كل الظواهر الفنية الموجودة في القرآن ، في محاولة لاستكشاف جوانبه المختلفة ، أما المستشرقون فقد أرادوا أن يستغلوا هذه الظاهرة في تأييد فكرتهم في أن القرآن ليس وحياً من عند الله . أما الآيات التي أشار إليها الباحثون فهي قوله تعالى[1] :

ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ـ وجفان كالجواب وقدور راسيات ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ـ والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً ـ هيهات هيهات لما توعدون ـ لمثل هذا فليعمل العاملون ـ تبت يدا أبي لهب وتب ـ فسيعلمون غدا من الكذاب ـ أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ـ ومن الليل فسبحه وادبار النجوم ـ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ـ أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ـ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ـ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ـ ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين[2] .

وقد أوردوا كثيراً من مثل هذه الآيات التي تجري على البحور الشعرية المعروفة ، بعضها أبيات متكاملة ، وبعضها مجرد شطور موزونة ، ولكن ذلك كله لا يعني وجود شعر في القرآن ، وما أصدق الجاحظ في رده على من ادعى وجود شعر في القرآن إذ قال : « اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ، ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن فاعلن كثيراً ، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً ، ولو أن رجلاً من الباعة صاح (من يشتري باذنجان) لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات ، فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ، ومثل هذا المقدار من الوزن قد تهيأ في جميع الكلام ، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالاوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً[3] .

---

(١) فاطر ١٨ ـ سبأ ١٣ ـ الطلاق ٢ ـ العاديات ١، ٢ ـ المؤمنون ٣٦ ـ الصافات ٦١ ـ المسد ١ ـ الطور ٤٩ ـ الإنسان ١٤ ـ الماعون ١، ٢ ـ آل عمران ٩٢ ـ يونس ٩٢ ـ التوبة ١٤ .

(٢) انظر : الاتقان في علوم القرآن ٢ : ١٢٤ ، إعجاز القرآن للباقلاني : ٧٦ : العقد الفريد ٦ : ١٢٨ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٥٩ .

فالقرآن إذن في نفيه أن تكون آياته شعراً صادق من الناحية الفنية كل الصدق ، ولكنه لا يغض من قيمة الشعر بوصفه فناً في ذاته ، حتى في سورة الشعراء التي توهم منها بعض البسطاء أنها طعن صريح في الشعر والشعراء ، قال عز من قائل ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

وإذا كانت الآيات السالفة التي تعرضت لذكر الشعر كلها مكية ، وكان الدافع إليها الرد على مشركي قريش الذين افتروا على الرسول ورسالته ، فإن هذه الآيات مدنية على الرغم من أن بقية آيات السورة نزلت في مكة ، وهذا معناه أن تلك الآيات تغاير في مراميها الآيات السابقة ، إنها تصم شعراء الكفار الذين أخذوا يناصبون الإسلام والرسول العداء ، ولكن بصفة التعميم لا التخصيص ، فالآية تقول : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ ولكن إذا كان لفظ الشعراء عاماً، فإنما تقصد الآية الشعراء الذين لا يلتزمون القواعد الخلقية التي رسمها الإسلام ، ولهذا فسر الزمخشري الآية قائلاً (لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الاعراض والقدح في الانساب والنسيب بالحرم[1] ، والغزل ، والابتهار[2] ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون والسفهاء والشطار[3] فكأن الزمخشري يجمل ما لا يرضى عنه الإسلام من موضوعات الشعر ، وهو الهجاء وما يدخل تحته من الخوض في الاعراض والطعن في الأنساب، والغزل وما يتضمنه من التشبيب الفاحش، والمدح إذا كان موجهاً لمن لا يستحقه، والفخر إذا كان قائماً على ادعاء كاذب. والأساس الذي ينشده الاسلام في الشعر هو عنصر الصدق ، والشعراء لا يطيقون أن يكونوا صادقين ، وفي هذا محك الخلاف المستمر بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل ، وقد

---

(١) أي التشبيب الفاحش، من خرمت الخرز أي شققته.
(٢) ادعاء الشيء كذبا.
(٣) الكشاف: سورة الشعراء.

أكدت الآيات وجهة نظر الإسلام في هذه النقطة بالذات إذ قالت (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) وهيامهم في كل واد ليس معناه خوضهم البريء في كل فن من القول ، بل معناه اعتسافهم الطريق والغلو في المنطق ومجاوزة حد الاعتدال ، وتخييل الجبان شجاعاً ، والبخيل جواداً . وإذا كان الزمخشري قد فسر في دقة تعارض الشعر مع القواعد الخلقية التي رسمها القرآن فقد تردد كثيراً في تفسير قوله تعالى : ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ فذكر أن الغاوين قد يكونون الرواة أو الشياطين أو شعراء قريش الذين قالوا نحن نقول مثل محمد ، وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الاعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم . ونحن لا نعتقد أن الآية الكريمة قد استهدفت بكلمة الغاوين طائفة من تلك التي ذكرها الزمخشري ، ولعل الأقرب إلى التصور أن يكون هؤلاء الغواة هم الأعراب الذين يجتمعون إلى شعراء قريش المشركين يستمعون أشعارهم وأهاجيهم في الرسول ورسالته . فإذا اتفقنا على أن الشعراء المقصودين في الآية الكريمة والذين يتبعهم الغاوون هم شعراء قريش الذين ناصبوا الإسلام العداء وأظهرهم : عبد الله بن الزبعري الذي أثار الخواطر ضد المسلمين بعد وقعة بدر[1] ، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي الذي قيل أنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وله أبيات عنيفة في وقعة أحد[2] ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عزة الجمحي الذي كان يحرض القبائل ضد المسلمين وقد أثبت له ابن سلام قصيدة ميمية يحرض فيها بني كنانة[3] . وينضم إليهم من قبيلة ثقيف أمية بن أبي الصلت الذي نهى الرسول عن رواية مرثيته في قتلى بدر[4]
كما يضاف إلى هؤلاء بعض شعراء اليهود مثل كعب بن الأشرف الذي هجا الرسول وحرض على المسلمين وشبب بنساء الرسول والمسلمين مما جعل محمد بن مسلمة يقتله في رهط من الأنصار[5] ـ إذا اتفقنا على أن الشعراء المقصودين في

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ١٩٨.
(٢) المصدر نفسه: ٢١٥.
(٣) المصدر نفسه: ٢١٣.
(٤) البيان والتبيين ١: ١٦٠.
(٥) طبقات فحول الشعراء: ٢٣٨ والسيرة النبوية ٣: ٥٤.

الآية هم هؤلاء ، كان معنى ذلك أن القرآن الكريم قد أسهم في وصم أولئك الشعراء بالكذب وادعاء الباطل وتجاوز حدود المنطق . وهذا الاتجاه لا يسلب القرآن صفة الشمول والعموم ، فالمبادىء الخلقية التي هاجم على أساسها هؤلاء الشعراء خاصة يمكن أن تطبق على غيرهم في كل زمان ومكان ، وكذلك الشأن في استثنائه الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اسم الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا . وقد أبان المفسرون أن المقصود بهؤلاء شعراء المسلمين الذين دافعوا عن الرسول والدعوة ، من أمثال عبد الله بن رواحة . وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير . ولكن الحقيقة أن الآية الكريمة إنما ترسم الصورة الفاضلة المثالية للشاعر المسلم الحق ، وقد حدد الزمخشري في تفسيره هذه السورة بقوله (استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعراقالوه في توحيد الله والثناء عليه ، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة وصلحاء الأمة ، وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة)[1] ذلك اذن هو موقف القرآن من الشعر ، وهو موقف واضح لا لبس فيه ، فهو يدعو إلى القول بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا معيار أخلاقي لا يختص بالشعر وحده ، ولهذا روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما الشعر فيه كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت (الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، فخذ الحسن واترك القبيح) [2] .

وقد يرى بعض الذين يدعون إلى حرية الابداع في الفن أن القرآن قد وضع قيوداً على الشعر كبلته ، فلم ينطلق إلى آفاق رحيبة ، بل ظل مقيداً إلى قاعدته الخلقية التي رسمها له . وليس بعجيب أن يضع القران حدوداً أخلاقية

---

(١) انظر: الكشاف سورة الشعراء.

(٢) انظر: العمدة ١. ١٤.

للشعر والشعراء ، بل العجيب ألا يفعل ، فغاية الدين الحرية في كل مجالاتها ، ولكن ليست على اطلاقها كما يدعو بعض المتحللين اليوم الذين ينادون بأن يكون الفن طليقاً من كل قيد ، فيتسع لا حط غرائز الانسان ونزعاته بدعوى الواقعية ، ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تدرك جيداً أن الفن اختيار ، وليس من الضروري أن نضاهي كل حركات انواقع لتأكيد معنى حرية الفن .

والإطار الأخلاقي الذي وضعه ا لإسلام للشعر ولغيره من الفنون هو الإطار المثالي الذي خرج عن التزامه الشعراء منذ وقت مبكر في العصر الإسلامي . وهذا الانحراف عن الغاية الأخلاقية تنبه له الفيلسوف اليوناني أفلاطون من قبل إذ أدرك خطر انحراف الشعر عن غايته الأخلاقية ، وكان يعارض أشد المعارضة نظرة السفسطائيين الذين كان فنهم يقوم على التمويه والخداع ، ولهذا كان أفلاطون يطلب الحقيقة لا في اللذة أو الانفعالات الحادثة في النفس ، بل في الصورة الفنية .

وقد ذهب أرسطو إلى أن وظيفة الفن هي التطهير بما تبعثه التراجيديا بصفة خاصة في النفس ، إذ تصفيها من الرعب والخوف وغيرهما من الانفعالات . ولم ينكر أفلاطون فكرة التطهير وأثر الفنون في تصفية النفوس ، ولكنه يرى أنه تطهير مؤقت زائف ، أما التطهير الحقيقي في رأيه فهو الذي دعا إليه أستاذه سقراط والذي يعتمد على الفكر ويقوم على العلم ، والذي بغيره تصبح الفضائل زائفة [1] .

وبناء على هذا الرأي نجد أفلاطون ضعيف الثقة في الدور الذي يقوم به الشعراء في مدينته الفاضلة ، فهو يقول على لسان سقراط أمام قضاته : « تركت رجال السياسة وقصدت ألى الشعراء سواء في ذلك شعراء المأساة أم الأغاني الحماسية أم ما شئتم من صنوف الشعر ، وقلت في نفسي أن الأمر لا ريب مكشوف لدى الشعراء ، فأجدني بإزائهم أشد جهلاً ، ثم جمعت طائفة مختارة من أروع ما سطرت أقلامهم وحملتها إليهم أسألهم عن معناها لعلي أفيد عندهم

---

(١) أفلاطون. ٤٦ .

شيئاً ، أفأنتم مصـدقون مـا أقول ، واخجلتـاه ! أكاد أستحي من القـول ، لولا أنني مضطر إليه ، فليس بينكم من لا يستطيع أن يقول في شعرهم أكثر مما قـالوا وهم ناظموه ، عندئذ أدركت على الفور أن الشعـراء لا يصدرون في الشعـر عن حكمة ، ولكنه ضرب من النبوغ والالهـام ، أنهم كالقـديسين أو المتنبئـين الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها .

هكــذا رأيت الشعـراء ، ورأيت فــوق ذلـك أنهم يعتقــدون في أنفسهم الحكمــة فيـما لا يملكــون فيـه من الحكمــة شيئاً ، استنــاداً إلى شــاعــريتهم القوية »[1] .

وكـان أفلاطـون يـرى الشعـراء مخـادعـين لا يحسنـون فهم أنفسهم ، ولا يقدرون على فهم الحقيقة ، فهم بالتالي بعيدون عن المثل الأخلاقية . وقد صرح بذلك في الكتاب العاشر من الجمهورية إذ قـال أنه يـريد مـدينة فـاضلة تحكمها الفلسفـة أي الحق ، ولكن الشعر بعيـد عن الحق . وكان يـرى أن الفن مـرتبط بـالأخلاق ، وأن الأعمـال الأدبية والآثـار الفنية إنمـا هي وسيلة لاظهار الحقـائق الاخلاقية ويؤكـد ضرورة مـطالبة الشعـراء أن يطبعـوا منظومـاتهم بطابـع الخلق الحميد ، وأن نحظر عليهم أن يـطبعوهـا بطابـع الوهن والفسـاد والخسة . وقـد هاجم أفلاطون أشعار هوميروس وهسيـود وغيرهمـا قائـلاً « إني أرى أن الشعراء والناثرين كتـاب الأقاصيص قـد تورطـوا في الخطأ وأوغلوا فيـه حينما يقـولون إن الكثيرين من الرجال غير العادلين سعـداء ، وإن الكثيرين من الـرجال العـادلين أشقياء ، وإن عدم مراعاة العدالة تجلب النفع إذا لم يكشف أمره ، وإن العـدالة تنفـع الغـير وتؤذي صـاحبهـا ، ويبـدو لي أن نحـظر عليهم اشـاعـة مثـل هـذه الاقاويل ، ونأمرهم بنظم الأغاني وتأليف الأقاصيص التي تحدث في النفس تأثيراً مخالفاً لذلك »[2] .

وهكذا نرى أن هوميروس وهسيود متهمان عند أفلاطون بافسـاد الأخلاق

---

(١) محاورات أفلاطون. ٧٦.

(٢) انظر: أفلاطون والأدب والفن

وكذلك الشعراء جميعاً لأن فنهم يقوم على الباطل ، ويرى أن الشعراء لكي يأتوا بصورة للحياة بالغة التأثير ، يضطرون إلى اختيار أفاعيل رديئة ، ويصورون شخصيات تعصف بها الأهواء العارمة ، ويعرضون عن تصوير الأعمال الصالحة والشخصيات العادية .

ومع أن أفلاطون قد تعرض للنقد بسبب آرائه هذه بدعوى أن الفن ليست له غاية أخلاقية ـ إلا أنه قال ما يعتقد أنه الحق ، على الرغم من ميله الشخصي للشعر والشعراء . فليس عجيباً اذن أن يرسم كتاب الله الحدود المثالية التي يرى أن الشعر في نطاقها يؤدي دوره الطبيعي في خدمة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على مبادىء الصدق والعفة والحق .

وكتاب الله لا يغض من قيمة الشعر بوصفه فناً في ذاته ـ كما سبق أن بينت ـ لا في الآيات التي ينفي فيها أن تكون كلماته شعراً ، ولا في الآيات التي ينفي فيها الشعر عن رسوله . وقد ظن الطاعنون على الشعر أن قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ يحتمل الغض من قيمة الشعر ، ولكن ابن رشيق فسر الآية تفسيراً صحيحاً قائلاً « معناها ما الذي علمناه شعراً ، وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعراً ، ولو أن كون النبي صلى الله عليه وسلم غير شاعر غض من الشعر لكانت أميته غضاً من الكتابة »[1] .

ورأى الجاحظ فيما قدمنا من آيات تعرضت للشعر أن الله جل شأنه عَمّم ولم يخص ، وأطلق ولم يقيد ، فمن الخصال التي ذم بها الشعراء في رأيه تكلف الصنعة والخروج إلى المباهاة والتشاغل عن الطاعة ومناسبة أصحاب التشديق . ونظراً لغلبة المنافسة عليهم فهم ينصرفون إلى قول الزور والفجر بالكذب وصرف الرغبة إلى الناس ، والافراط في مديح من أعطاهم وذم من منعهم [2] . وهذا الرأي يقرب كثيراً من أفكار أفلاطون ، وهو يكاد يصم الشعر كله بهذه الصفات السيئة التي ألحقها به ، والتي يرى أن الله نزه الرسول عن قول الشعر بسببها ، ولكننا ما زلنا نرى أن هذا التعميم لم يقصد على

(١) العمدة ١ : ٨.

(٢) البيان والتبيين ٣: ٧٤.

اطلاقه ، بل إن فيه قدراً من التخصيص بدليل الاستثناء الموجود في آيات سورة الشعراء .

هذا إذن هو موقف القرآن من الشعر ، فما موقف الرسول عليه السلام منه ؟ لقد صدرت أحاديث كثيرة تعبر عن موقف الرسول من الشعر ، ولكنها اختلفت في نصره الشعر أو الغض منه .

ما روي عن الرسول في ذلك قوله (لأن يمتلىء جوف يريه خير له من أن يمتلىء شعراً)[1] وروى مع مناسبته رواية أخرى إذ قيل رواية عن زيد بن واصل السلمي قال أتى مالك بن عمر السلمي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أني رجل شاعر - فهل على شيء في الشعر ؟ فقال : لأن يمتلىء ما بين ليتك الى عاتقك قيحاً ودماً خير من أن يمتلىء شعراً[2] .

وهذا الحديث إن كان صحيحاً ينبغي أن يوجه بحيث لا يعم الشعر كله بوصفه فناً في ذاته ، حتى ينسجم مع ما أثر عن الرسول من أحاديث أخرى فيها اعلاء لشأن الشعر كقوله صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكماً » وروى لحكمة أي من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهي عنهما [3] وقوله عليه السلام (الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في نواديها وتسل الضغائن من بينها) [4] . وقد حاول ابن رشيق بحكم دفاعه عن الشعر أن يفسر الحديث فقال إنما قصد من غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه واقامه فرائضه ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، وأما غير ذلك من يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة ومروءة فلا جناح عليه) [5] .

وقد حاول بعض الباحثين أن ينسب إلى الرسول شعراً كقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب حين كان ينقل التراب حتى وارى بياض بطنه :

---

(١) العمدة ١ : ١٨ القيح امِلدة، ويريه أي أكله.
(٢) الاستيعاب ١ : ٢٤٧.
(٣) العمدة ١ : ٤.
(٤) المصدر نفسه ١ : ١٥.
(٥) العمدة ١ : ١٨.

والله لـولا الله مـا اهـتـديـنـا ولا تـصـدقـنـا ولا صـلـيـنـا
انـا إذا قـوم بـغـوا عـلـيـنـا وإن أرادوا فـتـنـة أبـيـنـا
فـأنـزلـن سكـيـنـة عـلـيـنـا وثـبـت الأقـدام إن لاقـيـنـا [١]

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فـاغفـر لـلأنصار والمهـاجـرة[٢]

وواضح أن هذا البيت مختل الوزن وقد رواه ابن هشام عند وصفه لبناء مسجد الرسول فقال أن المسلمين كانوا يرتجزون وهم يبنون المسجد قائلين:

لا عـيش إلا عـيش الآخـرة اللهم ارحم الأنصـار والمهـاجـرة

وعلق ابن هشام على البيت قائلاً: هذا كلام وليس برجز، ثم نقل عن ابن اسحق قوله أن الرسول صلوات الله عليه وسلم كان يرد قائلاً: لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار[٣]. وكأنه صلوات الله عليه أراد أن يخرج الدعاء من الاشتباه بالشعر.

وروى البخاري عن جندب أنه قال، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت أصبعه فقال:

هـل أنـت إلا اصـبـع دمـيـت وفي سـبـيـل الله مـا لـقـيـت

والحقيقة إن هذه الأبيات المفردة التي تنسب للرسول صلى الله عليه وسلم ليست له، فالأبيات الثلاثة الأولى من رجز لسلمة بن الأكوع أنشده الرسول يوم خيبر[٤]. وإلى ذلك أشار ابن هشام وإن كان قد نسب الأبيات لعامر بن الأكوع عم سلمة[٥] وعثر الشيخ محمد عليان المرزوقي على البيت

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٣٢٨ وفي صحيح مسلم ١٢: ١٧١ بيتان مع اختلاف فهو يقول:
والله لـولا أنـت مـا اهـتـديـنـا ولا تـصـدقـنـا ولا صـلـيـنـا
فـأنـزلـن سـكـيـنـة عـلـيـنـا إن الألي قـد أبـوا عـلـيـنـا
(٢) صحيح مسلم ١٢: ١٧٢.
(٣) سيرة ابن هشام ١: ٤٩٦.
(٤) صحيح مسلم ١٢: ١٧٢.
(٥) سيرة ابن هشام ٢: ٣٢٨.

(هل أنت إلا اصبع دميت) منسوبا لعبد الله بن رواحة[1]، والحقيقة التي لا مراء فيها أن الشعر لم يكن من طبيعة كلام الرسول، ولكنه كان يتذوقه وينشده. ولا صحة لمن أسرف على نفسه وعلى البحث العلمي فأراد أن ينفي عن الرسول الشعر، فنسب إليه رواية جعله فيها غير بصير بالأوزان، وهذه أولية يعرفها كل عربي، ويشعر بها كل ذي حس أدبي، وكان أسلوب الرسول ـ فيما أثر عنه من حديث صحيح أو خطبة ـ من أروع أساليب البيان العربي، والرواية التي أشير إليها تقول أن العباس بن مرداس لما فضل الرسول عليه الاقرع بن حابس، وعيينة بن حصن في العطاء وقال في أبياته:

فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فبلغ رسول الله فدعاه فقال له: أنت القائل:

أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة

فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لم يقل ذلك، ولا والله ما أنت بشاعر ولا ينبغي لك الشعر، وما أنت براوية، قال: فكيف قال: فأنشده أبو بكر البيت، فقال: هما سواء لا يضرك بأيهما بدأت بالأقرع أو بعيينة[2].

ومن قبيل الإسراف أيضا في نفي الشعر عن الرسول أن قوما رأوا أن مشطور الرجز ليس بشعر لأن الرسول قال بيتا في وزنه[3].

والحقيقة التي لا شك فيها أن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر هو الموقف الإسلامي المثالي، فقد روى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال: لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله ماذا ترى في الشعر؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم

---

(١) مشاهد الانصاف: ٢٠.

(٢) الأغاني ٣: ٦٥ والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس (انظر «سيرة ابن هشام» ٢: ٤٩٤).

(٣) العمدة ١: ١٦٠.

بالنبل[1]. فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يهتم بالشعر للدفاع عن الإسلام ضد أعدائه من المشركين، وهو بذلك يفسر آيات سورة الشعراء على وجهها الصحيح، وكان يسوء الرسول أن يهجوه شعراء المشركين فلا يرد عدوانهم وافتراءهم الشعراء الذين أسلموا، وكان يقول صلى الله عليه وسلم: اللهم من هجاني فالعنه مكان كل هجاء هجانيه لعنة[2]. ولم يكن الرسول ليغضب لنفسه، ولكنه كان يغضب لدين الله، ولهذا حض الشعراء المسلمين على رد هذا الهجاء، مع علمنا بأن الهجاء مذموم في الإسلام، وأن الرسول نفسه قال: (من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر)[3] ولكن الإسلام لا يسلب أهله حق الدفاع عن أنفسهم، فهجاء المسلمين للمشركين على سبيل الانتصار منهم إنما هو على أساس قوله تعالى ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾.

ولهذا جاء في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اهجوا قريشا فإنه أشد عليها من رشق بالنبل، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: اهجهم، فهجاهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم فري الأديم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابهم وإن لي فيهم نسبا، حتى يلخص لك نسبي فأتاه حسان ثم رجع - فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله[4].

---

(١) الكافي الشاف: ١٢٣.
(٢) جمهرة أشعار العرب: ١٤.
(٣) العمدة ج ١ ص ١٦٢.
(٤) صحيح مسلم ١٢: ٤٩.

وهكذا استطاع الرسول أن يرد على القرشيين بأسلحتهم: بالأنساب والشعر، وكان شاعره حسان يتردد في شعره بين الهجاء الهادىء كقصيدته الهمزية التي هجا فيها أبا سفيان والتي مطلعها:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

وبين الهجاء الفاحش كهجائه للوليد بن المغيرة.

ولم يكن حسان وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء، بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء الذين صح إسلامهم، فكانوا يذودون عن الإسلام بأشعارهم ويذيعون مدائحهم في الرسول صلى الله عليه وسلم وينشرون لواء دعوته. وقد عدد ابن عبد البر الشعراء الذين كانت لهم رواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وعدي بن حاتم الطائي، وعباس بن مرداس السلمي، وأبو سفيان الحارث بن عبد المطلب، وحميد بن ثور الهلالي، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وأيمن بن خريم الأسدي، وأعشى بن مازن، والأسود بن سريع، والحارث بن هشام، وعمرو بن شاس، وضرار بن الأزور، وخفاف بن ندبة. أما الشعراء الذين كانت لهم صحبة وليست لهم رواية فهم: أحمد بن زهير، ولبيد بن ربيعة، وضرار بن الخطاب، وابن الزبعري وأبو ذؤيب الهذلي، والشماخ بن ضرار ومزرد بن ضرار[1]. وكل هؤلاء الشعراء كانوا دعاة للإسلام وسيوفا مسلولة ضد المشركين، وهذا يبين بجلاء أن الرسول لم يكن بعيدا عن شعراء عصره قط، بل كان قريبا منهم إلى أقصى حد بدليل صحبته لعدد كبير منهم.

وقد جاء في الأغاني أن حسانا وكعبا (كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله ابن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب،

---

(١) الاستيعاب ١: ٢١٣.

وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة)[1].

وكان الرسول صلوات الله عليه وسلم يستمع إلى الشعر ويتذوقه ويثيب عليه ويستجيب له، وكان الشعراء في عصره من الذين أسلموا يمثلون تيارا إسلاميا قويا لا ينبغي التهوين من شأنه إذا قورن بالشعر الجاهلي، ذلك أن معاني الإسلام قد تطرقت إلى هذا الشعر في موضوعاته وألفاظه، فأصبح يغاير الصورة الجاهلية التي عرف بها، وأول ما نلحظه في ذلك أن الجزالة البدوية القديمة التي كانت صفة غالبة على الشعر الجاهلي كادت تذوى تماما لتحل محلها بساطة في الأسلوب وألفاظ رقيقة لأن الشعر انتقل من البادية إلى المدينة، ولعل هذا هو ما دفع الرواة واللغويين إلى المجاهرة بدعوى ضعف الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، إذ كانت الأشعار الجاهلية الجزلة تمثل عندهم النموذج الكامل للشعر العربي. ثم إننا قد بينا أن الإسلام منع الهجاء ووصف الخمر والتشبيب الفاحش، ولهذا قال مصعب الزبيري أن قصيدة حسان بن ثابت (عفت ذات الأصابع فالجواء) التي وصف في مقدمتها الخمر مع أنها تتضمن مدح الرسول وهجاء أبي سفيان، كتب صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام[2].

ونرى الشعراء في عصر الرسول يتوجهون بمديحهم إليه ويتحدثون عن فضائل الإسلام، ويشيدون بالمسلمين في وقائعهم، ويفخرون بانتصارهم على أعدائهم. وقد تكون هذه الموضوعات محصورة ضيقة في رأي الرواة والمتأدبين. ولكنها تمثل في الواقع تطورا جديدا في الشعر غفلوا عن تسجيله.

وأهم ما نلحظه في ذلك تراشق شعراء المسلمين والكفار بالنقائض فيما بينهم حتى لتعتبر هذه النقائض الأساس الأول الذي بنيت عليه نقائض جرير والفرزدق والأخطل في العصر الأموي، ولولا أن شكوك ابن هشام في سيرته قد أحاطت بمعظم هذه النقائض من ناحية نسبها، لكان من الممكن أن تحتل

---

(١) الأغاني ٤ : ١٣٨.

(٢) الاستيعاب ١ : ١٢٦.

مكان الصدارة في تاريخ الشعر العربي. وعلى الرغم من ذلك فإن ما صح منها ليس بالقليل، ويكفي أن نرى ما أنتجته وقعة «أحد» وحدها من نقائض لنقول أن فنا شعريا جديدا قد أخذ طريقه إلى أدبنا العربي في عصر الرسول صلوات الله عليه.

وفن شعري آخر ينبغي أن نشير إليه قد وجد لأول مرة في ذلك العصر وأقصد به الشعر التعليمي، ذلك أن الفن الذي كان يظن أن ظهوره في القرن الثاني الهجري وما تلاه إنما كان بتأثير أجنبي، ويخصون بالذكر التأثير الهندي لولع الهنود بنظم علومهم، ولكن الحقيقة التي نرى أنفسنا إزاءها حين نطالع شعر أبي قيس صرمة بن أبي أنس، هي أن الشعر التعليمي قد وجد في ذلك العصر، فقد أوسع صرمة شعره لتعاليم الإسلام الجديدة يذيعها ليمحو بها ضلالات الجاهلية ومن ذلك قوله:

يقول أبو قيس وأصبح غادياً:

فأوصيكم بالله والبر والتقى ... وأعراضكم، والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدنهم ... وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم ... فأنفسكم دون العشير فاجعلوا[1]

وقد حفظت لنا كتب السيرة والصحابة أسماء معظم الشعراء الذين كانوا في عصر الرسول وتوجهوا إليه بمديحهم، وسنرى فيها تطورا في أسلوب المديح من ناحية رقة اللفظ والاهتمام بالفكرة بالإضافة إلى الاتجاه الإسلامي، فهذا العباس عم الرسول يقدم عليه فيقول: إني أريد أن أمدحك فقال الرسول صلى الله عليه وسلم قل لا يفضض الله فاك، فأنشأ يقول:

من قبلها طبت في الظلام وفي ... مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ... ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٥١٠.

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق[1]

وأتى أعشى المازني النبي فأنشده أرجوزة يصف فيها نزاعه مع زوجته قال:

يا مالك الناس وديان العرب إني لقيت ذربة من الذرب
ذهبت أبغيها الطعام في رجب فخالفتني بنزاع وهرب
أخلفت العهد ولطت بالذنب وهن شر غالب لمن غلب

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل ويقول: (وهن شر غالب لمن غلب)[2].

وعبد الله بن الزبعري مدح الرسول واعتذر إليه بعد إسلامه بقصيدة مشهورة يقول فيها:

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمد لامني فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها عيرانة سرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من التي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الهوى ويقودني أمر الغواة وأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبي محمد قلبي ومخطىء هذه محروم[3]

---

(١) الاستيعاب ١: ١٦١. أراد بالصالب الصلب أي الظهر وهو قليل الاستعمال (انظر اللسان مادة صلب) والمستودع) الجنة حيث كان آدم وحواء، والنسر: اسم صنم، والطبق: الامة، والنطق بضم النون والطاء جمع نطاق ويعني نواحي الجبال فجعله في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته كالجبل وجعل الآخرين نواحيه.

(٢) المصدر نفسه ١: ٥٥ والأبيات في اللسان مختلفة في بعض ألفاظها والذربة امرأته كنى بها عن فسادها وخيانتها إياه أو ربما أراد سلاطة لسانها، ويقال أن هذا الرجز للاعور بن قراد وهو أعشى بني حرماز ولطت الناقة بذنبها أي أدخلته بين فخذيها لتمنع الحالب (انظر اللسان مادة ذرب).

(٣) الاستيعاب ١: ٣٥٦. واعتلج أي التطم، والعيرانة الناقة النشيطة القوية تشبيها لها بالعير، وسرح اليدين: سريعة.

وأقبل زهير بن صرد من بني سعد بن بكر على رسول الله في وفد هوازن إذ فرغ من حنين، فقال له زهير: يا رسول الله إنما سبيت منا عماتك وخالاتك وحواضنك اللائي كفلنك ثم قال:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عافها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير
يا خير طفل ومولود ومنتخب ... في العالمين إذا ما حصل البشر
إن لم تداركها نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها درر
إذ كنت طفلا صغيرا كنت ترضعها ... وإذ يرينك ما تأتي وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون كذلك وقالت الأنصار كذلك، وأبي الاقرع بن حابس، وبنو تميم، وعيينة بن حصن، وبنو فزارة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما من تمسك منكم بحقه في هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي نصيبه، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم[1].

وعن سعيد بن المسيب أنه قيل له: إن قبيصة بن ذؤيب يزعم أن الخليفة لا يناشد الأشعار.

قال سعيد: ولم لا يناشد الخليفة وقد نوشد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قدم عليه عمر بن سليم الخزاعي، وكانت حلفاء له، فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حي من خزاعة يقال لهم بنو كعب، فقتلوا فيهم وأخذوا أموالهم، فقدم عمر على النبي مستنصرا فقال:

يا رب اني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الاتلدا
نحن دعوناهم فكانوا ولدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

(١) الاستيعاب ١: ١٩٩

وهـم أذل وأقـل عـددا فـانصر هـداك الله نـصـرا أبـدا
وادع عـبـاد الله يـأتـوا مـددا فـيـهـم رسـول الله قـد تجـردا
إن سـيـم خـسـفـا تـربـدا في فيلق كـالبحـر يجـري مـزبـدا

قال: فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر إلى سحابة قد بعثها الله تعالى فقال: والذي بعثني بالحق نبيا، إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب وخرج بمن معه لنصرهم[1].

أما ليلى بنت النضر بن الحارث فقد عرضت للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت واستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، ثم أنشدته بعد أن قتل أبوها:

يـا راكـبـا ان الأثيـل مـظنـة من صبح خـامسـة وأنت موفق
أبـلغ بهـا ميتـا بـأن قصيـدة ما أن تـزال بهـا الـركائب تخفق
فـليسـمعـن الـنضر إن نـاديتـه إن كـان يسمـع ميت لا ينـطق
ظلت سيـوف بني أبيـه تنـوشـه لله أرحـام هـنـاك تـشـقـق
قسرا يـقـاد إلى المنيـة متعبـا رسف المقيـد وهـو عـان مـوثق
أمحمـد هـا أنت ضنء نجيبـة من قـومها والفحـل فحل معرق
ما كـان ضرك لـو مننت وربمـا مـن الفتى وهـو المغيظ المحنق

فلما سمع الرسول هذه الأبيات قال: لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته[2].

واستمع الرسول صلوات الله عليه إلى الشعراء الفحول فكان يستطيب شعرهم ويدعو لهم كما فعل مع النابغة الجعدي حين أنشده قصيدته التي يقول فيها:

---

(1) الجمهرة ١٦: ورواية الأبيات في السيرة لابن هشام تخالف رواية الجمهرة ورواية الاستيعاب تقديما وتأخيرا وحذفا وزيادة، انظر: ابن هشام ٢: ٣٩٤.

(2) البيان والتبيين ٣: ٣٠٥ وفي سيرة ابن هشام أن قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث. والأثيل موضع قرب المدينة والمظنة الموضع الذي يظن وجود الشيء فيه، وصبح خامسة أي من صباح خمسة أيام، والضنء بالفتح والكسر أي ولد.

خليلي عوجا ساعة وتهجرا ... ولوما على ما أحدث الدهر أوذرا
ولا تجزعا إن الحياة ذميمة ... فخفا لروعات الحوادث أوقرا
وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا
ألم تريا أن الملامة نفعها ... قليل إذا ما الشيء ولى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا ... تغير شيئاً غيرما كان قدرا
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيرا[1]

واستطاع كعب بن زهير أن ينال عفو الرسول عنه بعد أن أنشده قصيدة يعتذر فيها عما أغضب الرسول منه، فقد بلغه صلوات الله عليه أن كعبا هجاه ونال منه فأهدر دمه. فكتب إليه بجير بن زهير - وكان قد أسلم وحسن اسلامه - يعلمه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل بالمدينة كعب بن الاشرف - وكان قد شبب بأم الفضل بن العباس وأم حكيم بنت عبدالمطلب[2] فلما بلغه كتاب أخيه[3]، ضاقت به الارض ولم يدر فيم النجاة، فأتى أبا بكر رضي الله عنه فاستجاره فقال أكره أن أجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهدر دمك، فأتى عمر رضي الله فقال له مثل ذلك. فأتى علياً عليه السلام فقال: أدلك على أمر تنجو به، قال: ما هو؟ قال: تصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا انصرف فقم خلفه وقل يدك يا رسول الله أبايعك، فإنه سيناولك يده من خلفه، فخذ يده فاستجره، فأرجو أن يرحمك. ففعل، فلما ناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، استجاره، وأنشده قصيدته التي يقول فيها:

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١) الجمهرة: ٣٠١.
(٢) انظر الأبيات في تاريخ الطبري ٢: ٤٨٨.
(٣) أغلب الظن أنه كان شعرا فقد ذكر ابن عبد البر أبياتا لبجير يقول فيها (الاستيعاب ١ : ٦٨):

فمن مبلغ كعبا فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلى الله العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاة وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من النار إلا طاهر القلب مسلم

مهـلا هداك الـذي أعطاك نـافلة القـرآن فيهـا مـواعيظ وتفصيـل
لا تـأخـذني بـأقـوال الـوشـاة ولم أذنب وان كـثرت في الاقـاويـل

فخلع الرسول عليه بردته، ويقـال إنه أعطاه مائة من الابل[1].

وكذلك عفا الرسول عن أسيد بن أبي أياس الذي أسلم عام الفتح وكان قد أهدر دمه فأمنه فمدحه بأبيات. منها قوله يخاطب قريشا:

في كـل مجمـع غـاية أخـزاكم صدع يفوق عـلى المذاكى القـرح
هـذا ابن فـاطمـة الـذي أفنـاكم ذبحـا وقتـلا بعضـه لم يـرتـح
لله دركـم أم تـذكـروا قد يذكر الحر الكريم ويستحي[2]

وكذلك عفا الرسول عن أنس بن زنيم فقال يمدحه وقد أنشده إياها:

ونبى رسـول الله أني هـجـوتـه فـلا رفعت سوطي إلى إذا يـدي
فـإني لاعـرضـا خـرقت ولا دمـا هـرقت فذكـر عـالم الحق واقصـد
سوى أنني قد قلت يا ويح فتيـة أصيبـوا بنحس يوم طلق وأسعـد
أصـابهم من لم يكن لـدمـائهم كفيئـا فعزت غـيرتي وتلددي[3]

وإذا كان أسيد قد اصطنع في مدحه للرسول ذلك الاسلوب البدوي العنيف الذي يصور الظفر عن طريق القتل والدماء، فإن ابن زنيم كان موفقا في الاعتذار بأنه التزم الموقف الاخلاقي الاسلامي حتى قبل أن يسلم فلم يقدح في أعراض المسلمين ولا استباح دمهم في شعره، ولكن كل ما فعله أنه رثى قتلى الكفار موجع القلب لأن قاتليهم لم يكونوا في درجتهم الاجتماعية، وهذا أمر كان يعتد به في الجاهلية.

ويضل بنا القصد لو أننا عددنا الشعراء الذين مدحوا الرسول أو أنشدوه شعرهم، فكتب السير وطبقات الصحابة مليئة بهم مثل أسماء بن ياب بن

---

(١) العمدة ١ : ١١.

(٢) الإصابة ترجمة أسيد بن أبي اياس والصدع الفتى الشاب وأصله للوعول، والمذاكي جمع مذكية التي تغالب الجري غلابا والقارح التام السن.

(٣) المصدر نفسه ترجمة أنس بن زنيم.

معاوية الجرمي، والاسود بن أبي الاسود النهدي، والاسود بن مسعود الثقفي، وأوس بن معراء القريعي، وبجير بن بجرة، وبجير بن زهير بن أبي سلمى، والعباس بن مرداس، والنمر بن تولب، ومزرد بن ضرار، وقد أشار ابن حجر العسقلاني الى كتاب الصحابة الذين مدحوا المصطفى[1]، ولو وجد هذا الكتاب لطالعنا شعرا كثيرا كان يزخر به عصر الرسول.

وكما حض الرسول شعراء المسلمين على رد عادية شعراء المشركين نراه يستعين بحسان بن ثابت في الرد على شعراء الوفود الذين أتوا لمنافرته، فقد أتى وفد تميم، فقام خطيبهم عطارد بن حاجب فخطب، فأمر الرسول ثابت بن قيس الخزرجي بإجابته، ثم قام شاعر تميم الزبرقان بن بدر، فأنشده قصيدة يفخر فيها بقومه، فأجابه حسان بقصيدة على وزن شعره ورويه، وهي من أروع شعر حسان وتدل دلالة قاطعة على شاعريته القوية في الاسلام، إذ التزم ببحر وروى بعينهما وأجاب على البديهة بأبيات قوية صادقة يقول فيها:

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن اصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد ببيشة في أرساغها فدع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الاهواء والشيع[2]

واستعان الرسول عليه السلام بحسان مرة أخرى حين بلغه أن قوما نالوا أبا بكر بالسنتهم، فصعد المنبر وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس ليس أحد منكم آمن علي في ذات يده ونفسه من أبي بكر. كلكم قد قال لي كذبت إلا أبا بكر قال: صدقت، فلو كنت متخذا خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا. ثم التفت إلى حسان فقال: هات ما قلت في وفي أبي بكر، فقال: حسان:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

---

(١) الإصابة ترجمة أوس بن مغراء القريعي.

(٢) الزعانف أي الطوائف والجماعات ومكتنع والجماعات ومكتنع أي مقترب، والفدع اعوجاج في المفاصل.

التالي الثاني المحمود شيمته وأول الناس طرا صدق الرسلا
والثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا
خير البرية أتقاها وأرأمها بعد النبي وأدناها بما حملا

فقال صلى الله عليه وسلم: صدقت يا حسان، دعوا لي صاحبي قالها ثلاثا[1].

وواضح أن الرسول كان يحفظ بعض الشعر، إذ تضمنت خطبة قس بن ساعدة التي رواها عنه الرسول صلى الله عليه وسلم - كما يقول الجاحظ - بعض الأبيات الحكمية وهي قوله:

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الاكابر والاصاغر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر[2]

وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال لبعض من حضر مجلسه: أنشدني كلمتك التي تقول فيها:

وحى جميع الناس تسب عقولهم تحيتك الادنى فقد ترفع النغل[3]
فإن أظهروا بشرا فاظهر جزاءه وان ستروا عنك القبيح فلا تسل
فإن أظهروا بشرا فأظهر جزاءه وإن الذي قد قيل خلفك لم يقل[4]

وكذلك روي أن الرسول صلوات الله عليه أنشد قول أمية بن أبي الصلت:

---

(١) جمهرة أشعار العرب: ١٥.
(٢) البيان والتبيين ١: ١٦٨.
(٣) النغل: الفساد أو العفن يكون في الجرح وغيره.
(٤) الجمهرة: ١٨.

زحـل وثـور تحت رجـل يمينـه   والنسر لـلاخـرى وليث يـرصـد

فقال: صدق، هكذا صفة حملة العرش، وصح عن الشريد بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم استنشده من شعره فقال: آمن شعره وكفر قلبه[1].

وعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

إلا كل شيء ما خـلا الله باطـل   وكـل نعيم لا محـالـة زائـل[2]

فأفاق صلوات الله عليه فقال: هذا قول عمي أبي طالب[3].

ومن هذه الشواهد جميعا يتبين لنا أن موقف الرسول من الشعر إنما هو توكيد لما فصلناه من موقف القرآن الكريم، فالرسول يعرف أن الشعر مرتبط بحياة العرب كل الارتباط، وأنه ليس مجرد صورة من صور القول. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام (لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين)[4].

وعن أنس بن مالك قال: قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في الانصار بيت الا وهو يقول الشعر[5].

ومن هنا كان على الرسول أن يوجه الشعر إلى منازع جديدة من القول، غير التي كان يخوض فيها في الجاهلية، فكان ينفر من الهجاء، وقد ساءه كثيرا هجاء المشركين له، فاضطر أن ينازلهم بسلاحهم ـ كما بينت من قبل ـ على كره منه. وكان بطبيعة الحال ينفر من التشبيب وفحش القول، ولا يهوى من الشعر إلا ما تضمن حكمة أو موعظة حسنة، أو ما كان فيه اعلاء شأن

---

(١) الإصابة: ترجمة أمية بن أبي الصلت.
(٢) الاستيعاب ١: ٢٢٨.
(٣) أنساب الأشراف ١: ٥٥٣.
(٤) العمدة ١: ١٧
(٥) العقد الفريد ٦. ١٣٤.

الاسلام والمسلمين. وفي كل ما روينا دليل على ذلك. وإذا أدركنا جيداً هذه المعاني اتضح لنا مدلول حديث الرسول حين ذكر امرأ القيس فقال: هو قائد الشعراء الى النار. وفي خبر آخر معه لواء الشعراء إلى النار. وقيل ان صلوات الله عليه قال لقوم من اليمن. ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فقيها، منسي في الآخرة خامل فيها، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار.

فتوجيه الحديث - إن صح - إنما ينصب على الشعراء الذين اشتهروا بالفحش والتعهر في القول ونسوا الله فنسيهم. وهؤلاء الشعراء وجدوا في الجاهلية كاتجاه واضح يمثله امرؤ القيس، كما لاحظ ابن سلام من قبل[1] وقد نقض الأستاذ أحمد شاكر هذا الخبر المذكور في عيون الأخبار والأغاني ومعجم البلدان فقال إنه مشهور عند الاخباريين والأدباء. ولكنه غير معروف عند المحدثين وهم الحجة فيما ينسب إلى رسول الله من الأخبار. ولكن روى أحمد في المسند من حديث أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي (امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار) وهو حديث ضعيف جداً، ذكره ابن كثير في التاريخ، وقال هذا منقطع، وقد قال الحافظ بن حجر في لسان الميزان أنه خبر باطل[2].

وفي قصائد الشعراء الذين أنشدوا الرسول لانعدم وصف الخمر أو الغزل، أو موضوعات أخرى تجري على النسق الجاهلي دون تغيير. فقد ذكرت من قبل قصيدة حسان بن ثابت التي بدأها بوصف الخمر، وبينت أن هذا الجزء قاله حسان في الجاهلية، ولكنه ركب عليه قصيدته الإسلامية، باعتبار أن هذا الاستهلال مجرد نموذج فني لا يقصد لذاته، أما قصيدة كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم أثرها لم يفد مكبول

فهي تتضمن التشبيب الذي يتعرض لبعض الصفات الحسية كقوله:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكي قصر منها ولا طول

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

---

(1) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢.

(2) الشعر والشعراء ١: ١٣٦.

وقد استغرق التشبيب خمسة عشر بيتا، ثم وصف كعب بن زهير ناقته بأكثر من ذلك.

وفي قصيدة حسان بن ثابت التي يفخر فيها بيوم بدر والتي مطلعها:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقي الضجيع ببارد بسام.

مضى يتغزل في صدر القصيدة كالطبيعة الثابتة للشعر الجاهلي وطبقا لنهج القصيدة فيه، ولم يكن يعني بتشبيبه امرأة بعينها. ولهذا السبب ربما أغضى الرسول عما في تلك القصائد مما يخرج عن نطاق ما يستحسن من الشعر في الإسلام، بدليل إهداره دم كعب بن الأشرف لتشبيبه بالمسلمات.

ولم يكن الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين محصورا في المعاني التي كاد أن يحددها الإسلام، فالشعر تعبير عما في ضمير الإنسان، والناس مختلفون فيما يضمرون حتى مع العفة والنسك، فقد قيل لعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: كيف تقول الشعر مع العفة والنسك فقال: لا بد للمصدور من أن ينفث[1].

ولا ننسى وجود حزب معاد للإسلام من المشركين الذين كان لأشعارهم سننها المعروف، كما كان يوجد في الجزيرة العربية شعراء البوادي الذين كانوا بعيدين عن التأثر بالمعاني الإسلامية الجديدة، ولكن حتى شعراء المسلمين استخدموا الشعر فيما يعن لهم من شئون الحياة، وإن كان ذلك في الحدود التي رسمها الإسلام، إلا من حالات شاذة مفردة، كان ظهورها واضحاً في أيام الخلفاء الراشدين.

وقد برزت فكرة تخلي بعض الشعراء المخضرمين عن قول الشعر بعد أن حسن إسلامهم في كتابات الذين أرخوا لهذه الفترة، وهي فكرة لا سند لها من الحقيقة، وهي امتداد طبيعي لدعوى ضعف الشعر بعد ظهور الإسلام، فقد روي عن لبيد بن ربيعة مثلاً أنه قال: إني تركت الشعر منذ قرأت القرآن[2].

---

(١) البيان والتبيين ٢. ٢٠٦.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٣٩

وقيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة: أن استنشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الإسلام، قال: فانطلق لبيد. فكتب سورة البقرة في صحيفة وقال: قد أبدلني الله بهذه في الإسلام مكان الشعر. وجاء الأغلب العجلي إلى المغيرة فقال له:

أرجزا تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا

فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه أن انقص من عطاء الأغلب خمسمائة فزدها في عطاء لبيد[1]م). وهذا الخبر لا يحتاج إلى دليل لإسقاطه، لأنه لا يتفق مع موقف الإسلام من الشعر قرآنا وسنة، وعمر رضي الله عنه لا يمكن أن يتجاوز حدود ما أحل الله، فيعقد هذا الامتحان المزعوم، يضاف إلى ذلك أن الخبر لا يتضمن غير لبيد والأغلب العجلي، وكأن المخضرمين يقتصرون على هذين، مع أن الشعراء المخضرمين من الفحول كثرة غالبة، ففيهم الحطيئة والنابغة الجعدي وعبدة بن الطبيب والنمر بن تولب وأبو ذؤيب الهذلي وغيرهم كثيرون. وجميعهم بلا استثناء قد استمروا يزاولون فنهم الشعري بعد الإسلام، وإن كان ذلك لا ينفي وجود شاعر غمره الإسلام بنوره فآلى أن يودع حياة الجاهلية بما فيها من الشعر كبشار بن عدي الطائي الذي يقول:

تركت الشعر واستبدلت منه كتاب الله ليس له شريك
وودعت المدامة والندامى إذا داعى منادي الصبح ديك[2]

والرواة يناقضون أنفسهم بالنسبة للبيد أشد التناقض، فهم يقولون إنه لم يقل إلا بيتا واحدا بعد أن أسلم، ثم اختلفوا حول هذا البيت، فبعضهم يجعله قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا[3]

---

(١)الإصابة ترجمة الأغلب العجلي.
(٢)الإصابة ترجمة بشار بن عدي.
(٣)الأغاني ١٤: ٩٤، الشعر والشعراء ١: ٢٨ الاستيعاب ١: ٢٢٨.

وبعضهم يقول إن البيت هو الذي أعجب به الرسول صلى الله عليه وسلم هو:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل[1]

وفريق ثالث يدعي أن هذا البيت المفرد هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح[2]

والحقيقة أن لبيدا كتب بعد إسلامه شعرا. والبيت الذي يذكر الرواة أنه أعجب الرسول صلوات الله عليه إنما هو من قصيدة طويلة مثبتة في ديوان لبيد، وواضح فيها التأثير الإسلامي كل الوضوح ومطلعها:

ألا يسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضي أم ضلال وباطل

وهناك قصائد أخرى تدل على آثار إسلامية عميقة في نفس لبيد، ومن ذلك قصيدة لامية له، ومما يؤكد أنه قالها بعد إسلامه ذكره فيها لرحلته، لعلها رحلته إلى الكوفة التي استقر فيها بعد الإسلام، ومن أبيات هذه القصيدة قوله:

أن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثى وعجل
أحمد الله فلا ند له بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل
فاكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل
غير أن لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر لله الأجل[3]

بل يروى له الراوون أبياتا حين بلغ تسعين عاما وعشرين ومائة، وما بلغ هذه السن العالية إلا في الإسلام، بل يروون له شعرا حين حضرته الوفاة[4] فكيف ينفون عنه قول الشعر بعد الإسلام؟ والحديث عن الشعراء المخضرمين

---

(١) الأغاني ١٤: ٩١

(٢) الشعر والشعراء ١: ٨٨.

(٣) الديوان: ١٧٢، الشعر والشعراء ١: ٢٣٨.

(٤) الجمهرة: ٤٠.

ورصد اتجاهاتهم وبيان الأثر الإسلامي في أشعارهم يدفعنا للحديث اولا عن موقف الخلفاء الراشدين من الشعر. وأول ما ينبغي أن يقال إن الشعر أصبح سمة قومية للعرب، حتى لقد قيل لسعيد بن المسيب: إن قوما بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكا أعجميا[١]. وكان أبو السائل المخزومي ـ على شرفه وجلالته وفضله في الدين والعلم ـ يقول: أما والله لو كان الشعر محرما لوردنا الرحبة كل يوم مرارا، والرحبة الموضع الذي تقام فيه الحدود، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيحد، في كل يوم مرارا ولا يتركه[٢].

وقيل لأبي الدرداء: ما لك لا تقول الشعر وكل لبيب من الأنصار قال الشعر. فقال: ـ وكأنما يتبرأ من تهمة كراهية الشعر أو التباعد عنه ـ وأنا قد قلت شعرا، فقيل: وما هو؟ فقال:

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا[٣]

وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر حتى ليقال إنها كانت تروي شعر لبيد كله، وقيل إنها كانت تروي ألف بيت له، وأنه أقل مما تروي لغيره[٤].

وروي عنها أنها قالت: رحم الله لبيدا، ما أشعره في قوله:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجاد الأجرب
لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

ثم قالت: كيف لو رأى لبيد خلفنا هذا[٥].

وكانت السيدة عائشة تتمثل بقول الشاعر:

---

(١) العمدة ١: ١٦.
(٢) المصدر نفسه ١: ١٧.
(٣) الاستيعاب ٣: ٦٤٤.
(٤) العقد الفريد ٦: ١٢٥.
(٥) الجمهرة: ٣٨.

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه   يوما فتدركه عواقب ما جنى
يجزيك أو يثني عليك وأن من   أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فسمعها رسول الله فقال لها: كيف الشعر الذي كنت تتمثلين به؟ فإذا أنشدته إياه، قال: إنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس[1].

وبهذه الروح العربية الإسلامية التي لا تجد في الشعر غضاضة، ما كان منه حكمة رائعة أو مثلا محكما، نجد خلفاء رسول الله رضوان الله عليهم وصحابته، بل أن ابن رشيق يقول: ليس من بني عبد المطلب رجالا ونساء من لم يقل الشعر حاشا النبي صلى الله عليه وسلم. ويذكر من بينهم حمزة بن عبد المطلب ويورد له مقطوعة يذكر فيها لقاء أبي جهل وأصحابه، يقول فيها:

عشية صاروا حاشدين وكلنا   مراجله من غيظ أصحابه تغلي
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا   مطايا وعقلنا مدى غرض النبل
وقلنا لهم حبل الإله نصيرنا   وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغيا   فخاب ورد الله كيد أبي جهل[2]

وأما العباس بن عبد المطلب فكان شاعرا مفلقا حسن التهدي، من ذلك قوله يوم حنين يفتخر بثبوته مع الرسول صلى الله عليه وسلم:

ألا هل أتى عرسي مكري وموقفي   بوادي حنين والاسنة تشرع
وقولي إذا ما النفس جاشت لها قدى   وهام تدهدى والسواعد تقطع
وكيف رددت الخيل وهي مغيرة   بزوراء تعطي باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة   وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا[3]

ويذكر ابن رشيق أشعارا أخري لعبد الله بن عباس وجعفر بن أبي

---

(١) الشعر والشعراء ١: ٣٨١ والبيتان ينسبان لزهير بن جناب أو لغريض اليهودي.
(٢) العمدة ١: ٢٢.
(٣) العمدة ١: ٢٣ والسبعة المشار إليهم في البيت هم: أبو بكر وعمر وعلي والعباس والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث، وتدهدى أي تتدحرج، والزوراء قوس سميت كذلك لميلها.

طالب، يقول إن السيدة فاطمة رضي الله عنها كانت تقول الشعر، ولكنه لم يورد لها أبياتا[1].

ويورد ابن عبد البر أبياتا في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم للسيدة صفية بنت عبد المطلب، نحس فيها الإيمان والعاطفة الإسلامية الصادقة تقول:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا برا ولم تك جافيا
وكنت رحيما هاديا ومعلما ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا
لعمرك ما أبكي النبي لفقده ... ولكن لما أخشى من الهرج آتيا
كأن على قلبي لذكر محمد ... وما خفت من بعد النبي المكاويا[2]

أما البلاذري فيروي للسيدة آمنة بنت وهب أبياتا رقيقة في رثاء زوجها عبد الله بن عبد المطلب وهي قولها:

عفا جانب البطحاء من قرم هاشم ... وحل بلحد ثاويا غير رائم
عشية راحوا يحملون سريره ... يغلونه عن عبرة وتزاحم
دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما غادرت في الناس مثل ابن هاشم
فإن يك غالته المنايا بيثرب ... فقد كان مفضالا كثير التراحم[3]

فإذا كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه، لم نجد له موقفا خاصا من الشعر إنما هو الموقف الإسلامي العام الذي شرحنا أمره من قبل، ولا يذكر له الرواة مواقف معينة مع الشعراء. ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردة لم تدع له وقتا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم. ولكن أكثر من مصدر ينسب له أبياتا من الشعر، بعضها في بلال بن رباح حين قتل أمية بن خلف في بدر ـ ذلك الذي كان يعذبه لإسلامه ـ وهي قوله:

هنيئا زادك الرحمن عزا ... فقد أدركت ثارك يا بلال

(١) المصدر نفسه ١: ٢٤.
(٢) الاستيعاب ١: ٢١.
(٣) أنساب الأشراف ١. ٩٢.

فلا نكسا وجدت ولا جبانا   غداة تتوشك الاسل الطوال[1]

أما الأبيات الأخرى التي تنسب إليه فهي في رثاء الرسول صلوات الله عليه، وهي من قصيدة مطولة:

فجعنا بالنبي وكان فينا   أمام كرامة نعم الامام
وكان قوامنا والرأس منا   فنحن الآن ليس لنا قوام
نموج ونشتكي ما قد لقينا   ويشكو فقده البلد الحرام
فلا تبعد فكل كريم قوم   سيدركه ولو كره الحمام
فقدنا الوحي إذ وليت عنا   وودعنا من الله الكلام
لقد أورثتنا ميراث صدق   عليك به التحية والسلام[2]

وقد ذكر ابن رشيق قصيدة ثالثة للصديق رضي الله عنه رواية عن ابن إسحق مطلعها:

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث   أرقت أو أمر في العشيرة حادث

وقد قال عنها ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبي بكر رضي الله عنه، ويشهد لصحة من أنكر أن تكون له، ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر في الإسلام. ولو صح هذا الخبر ما صحت نسبة الأبيات التي أثبتناها من قبل لأبي بكر: ولصح أن يكون له شعر قبل الإسلام، وليس لهذا إشارة في أي مصدر. وعلى أية حال فالموقفان اللذان دفعا أبا بكر رضي الله عنه إلى قول الشعر الذي أوردناه يدلان على حساسية مرهفة وأصالة فنية لا يتحتم وجودهما في شاعر همه الشعر فحسب. ونفي الشعر عنه أصلا ليس معناه أنه لا يحفظه أو ينشده، فقد روي أنه رضي الله عنه كثيرا ما كان ينشد قول الشاعر:

---

(١) أنساب الأشراف ١: ١٩٣ الاستيعاب ١: ٦٠٥.
(٢) أنساب الأشراف ١: ٥٩٢.

لا نزال ننعي ميتا حتى تكونه يرجو الفتى الرجا فيموت دونه[1]

وقد خلفت معركة الردة في عهد أبي بكر أشعارا كثيرة كان يتراشق بها الفريقان: المسلمون والمرتدون، فهذا أوس بن بجير الطائي في موقعة بزاخة يقول:

وليت أبا بكر يرى من سيوفنا وما تختلي من أذرع ورقاب
ألم تـر أن الله لا رب غيره يصب على الكفار سوط عذاب[2]

ويمدح الاباء بن قيس الأسدي خالد بن الوليد لبلائه في حرب الردة فيقول:

لن يهزم الله قوما أنت قائدهم يا ابن الوليد ولن يشقى بك الدبر
كفاك كف عذاب عند سطوتها على العدو وكف مرة غفر[3]

بينما نجد للمرتدين أشعارا مختلفة يستنفرون بها العزائم، ويصدون بها الناس عن ذكر الله[4] ولعله الحطيئة يمثل هذه الفئة الضالة إذ يقول:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا عجبا ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكرا إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وقد كانت حركة الردة في أساسها محاولة لاسترداد سلطة القبيلة المسلوبة، وليست ثورة على الدين الجديد[5] . وقد وجد الشعراء فيها فرصة لإشاعة الروح الحماسية القبلية القديمة كما يتضح لنا في قول الخطيل بن أوس أخي الحطيئة :

فدى لبني ذبيان رحلي وناقتي عشية يحدى بالرماح أبو بكر
ولكن يدهدى بالرجال فهبنه إلى قدر ما أن تقيم ولا تسرى

(١) البيان والتبيين ٣: ٧٤.
(٢) الإصابة ٢: ٥٥.
(٣) المصدر السابق ٢: ٥٥.
(٤) انظر: تاريخ الطبري ٢، الإصابة ٣: ١٢٥.
(٥) انظر: الهجاء والهجاءون: ٦.

إعجاب عمر بزهير في أكثر من موضع فهو يتعجب من قول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

ويسميه قاضي الشعراء بهذا البيت، لعلمه بالحقوق وتفصيله بينها وإقامة أقسامها[1].

وهكذا نرى أن عمر رضي الله عنه يحب من الشعر ألا تكون فيه معاظلة أي لا يحمل بعض الكلام على بعض، فيكون فيه تداخل وتعقيد، وقيل ألا يكون فيه تكرار اللفظ والمعنى. أما من الناحية الخلقية فيؤكد عمر رضوان الله عليه المبدأ الإسلامي الذي ينادي بالصدق في الشعر. وهذا المبدأ واجب التطبيق في المديح بالذات لأنه أوسع أبواب الشعر وأحفلها بالمغالطة والنفاق والكذب: وقد وردت في الصحيحين أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في النهي عن الإفراط في المدح إذا خيف فيه فتنة الممدوح[2] وكان عمر رضي الله عنه يقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم[3].

وسمع عمر رضي الله عنه لكثير من الشعراء، فقد أنشدوه قصيدة عبدة الطبيب اللامية، فلما بلغ المنشد إلى قوله:

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

أخذ عمر يردد البيت متعجباً من حسن ما قسم الشاعر وفصل، ومن هذا المعنى الحكمي الدقيق[4].

وأنشد رضي الله عنه قصيدة أبي قيس بن الاسلت العينية، فلما انتهى المنشد إلى قوله:

الكيس والقوة خير من الاشفاق والفهة والهاع

(١) العمدة ١: ٤١، البيان والتبيين ١: ١٣٥.
(٢) انظر: صحيح مسلم ١٦: ١٢٦.
(٣) البيان والتبيين ١: ١٤٢.
(٤) المصدر نفسه ١: ١٤٢.

جعل يردد البيت ويتعجب منه [1].

وسمع رضي الله عنه رجلا ينشد:

متى تأته تعشو إلى ضوء نـاره تجد خير نار عندها خير موقد

فقال عمر: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم [2].

وأنشده سحيم عبد بني الحسحاس قصيدته التي أولها:

عمـيرة ودع أن تجهزت غـاديـا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

فقال له: لو كان شعرك كله مثل هذا لأجزتك، وقيل: لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك [3].

ولم يكن عمر رضي الله عنه يستمع إلى الشعر فحسب، بل كان ينشده أحيانا، وكان يعجبه المعنى الجيد حتى ولو كان صاحبه نصرانيا جاهليا. فقد قيل للاوسية أي منظر أحسن؟ قالت: قصور بيض في حدائق خضر، فأنشد عند ذلك عمر رضي الله عنه بيت عدي بن زيد العبادي:

كدمى العاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير [4] وقال رضي الله عنه: كذب الحطيئة حيث يقول:

وإن جيـاد الخيـل لا تستفـزنـا ولا جاعلات العاج فوق المعاصم [5].

ولكثرة ما روي عن عمر رضي الله عنه في ذلك قال ابن سلام عن بعض أشياخه: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر [6].

---

(١) المصدر نفسه. الاشفاق: الخوف، والفهة، الغفلة، والهاع: الجبن والضعف.

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٢.

(٣) المصدر نفسه ١: ٤٠.

(٤) البيان والتبيين ١: ٢٧.

(٥) المصدر نفسه ٢: ٢٤.

(٦) المصدر نفسه ١: ١٣٥.

ولله أجـــاد تـــداق مـــهـــانـــة لتحسب فيها عد من عجب الدهر

وقبل أن نترك الحديث عن الشعر في عهد أبي بكر رضي الله عنه، نشير إلى أن ابنه عبد الله كان شاعرا مشبوب العاطفة، وله في زوجته عاتكة بنت زيد أشعار كثيرة. وقد كانت عاتكة حسناء فاتنة الجمال، فأولع بها عبد الله وسكن إليها، حتى شغلته عن المغازي، فأمره أبوه بطلاقها فاستجاب له، ولكنه ظل يتغنى بحنينه إليها، فمن ذلك قوله:

يقــولــون طلقهــا وخيم مكـانها مقيـما، تمنى النفس أحـلام نـائم
وأن فـراقي أهـل بيت جميعهـم على كـثرة مني لإحـدى العـظائم
أراني وأهـلي كـالعجـول تـروحت إلى بوها قبـل العشاء الـروائم [1]

فإذا كان عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجدنا له مواقف متعددة إزاء الشعر والشعراء، وقد نسب إليه شعر أكثر مما نسب لأبي بكر رضي الله عنهما، فقد روي له قوله:

هـون عـليـك فـإن الأمـور بـكـف الإلّـه مـقـاديـرهـا
فـليس بـآتـيـك مـنـهـيـهـا ولا قـاصر عـنـك مـأمـورهـا

ولكن بعض الرواة ينسبون البيتين للأعور الشني [2].

وقيل إنه لبس بردا جديدا فنظر الناس إليه فقال:

لا شيء مـمـا تـرى تبقى بشـاشتـه يبقى الإلّـه ويفنى المـال والـولـد
لم تغن عن هـرمز يـوما خـزائنـه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليـمان إذ تجري الـرياح لـه والجن والإنس فيـها بـينهـا تـرد
حـوض هنالـك مورود بـلا كذب لا بـد من ورده يومـا كـما وردوا

وتنسب هذه الأبيات لورقة بن نوفل [3].

---

(١) الاستيعاب ٢: ٧٤٧.
(٢) العمدة ١: ٢٠
(٣) العمدة ١ ٢٠

وهناك أبيات في رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تنسب إلى عمر رضي الله عنه[1]، ولكن الرواة لم ينسبوها إلى شاعر غيره ونكاد نجزم بأن عمر رضي الله عنه ما كان يقول الشعر، ولكنه كان يعجب به ويتذوقه وينشده، ومما يؤكد ذلك أنه استنشد متمم بن نويرة ما قاله في أخيه مالك ليتعزى عن مقتل أخيه زيد بن الخطاب، فلما أنشده:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

قال عمر: يا متمم لو كنت أقول الشعر لسرني أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ما قلت في أخيك[2].

أما آراء عمر رضي الله عنه في الشعر ففيها أخبار كثيرة، فعن عبد الله بن عباس قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سفر، فرفع عقيرته ينشد:

فما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد

ثم وضع السوط على رحله ثم قال: أستغفر الله العظيم، ثم عاد فأنشد حتى فرغ، ثم قال ـ يا ابن عباس، ألا تنشدني لشاعر الشعراء، فقلت: يا أمير المؤمنين ومن شاعر الشعراء، قال: زهير، قلت: لم صيرته شاعر الشعراء، قال: لأنه لا يعاظل بين الكلامين، ولا يتبع وحشي الكلام، ولا يمدح أحدا إلا بما فيه[3].

والقصيدة التي كان يتغنى بها عمر رضي الله عنه هي لأنس بن زنيم في مدح رسول الله صلوات الله عليه، وإعجابه بزهير الجاهلي إنما هو إعجاب معلل تنبني النظرة النقدية فيه على أساس فني وخلقي معا. ويؤكد الرواة

---

(1) الجمهرة: ١٩ وأنساب الأشراف ١: ٥٩٢.
(٢) الشعر والشعراء ١: ٣٣٨.
(٣) الجمهرة: ٣٢ وفي الشعر والشعراء ١: ١٣٨ «كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»

وعمر رضي الله عنه لا يروي من الشعر إلا أعفه بحكم تكوينه النفسي والتزاما للحدود التي شرعها الإسلام، ولهذا نراه حين أنشده رجل قول طرفة:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى   وجدك لم أحفل متى قام عودي

قال: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقواما ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التمر، لم أبال أن أكون قدمت[1].

وقد كان لشخصية عمر رضي الله عنه القوية أثر بالغ في توجيه الشعر في أيامه، ومحاولة رد الشعراء إلى جادة الحق، وإلى الطريق الذي رسمه لهم الرسول صلوات الله عليه، فقد تقدم عمر إلى الشعراء أن لا يشبب رجل بامرأة إلا جلده[2]. ولما كان التشبب انفعالا يعتلج في نفس صاحبه ولا بد له أن ينفثه، لهذا رأينا شاعرا غزلا كحميد بن ثور يتخذ طريقا جديدا في التشبيب. إذ يعتمد على الرمز والكناية دون التصريح فهو يقول:

أبى الله إلا أن سرحة مالك   على كل أفنان العضاه تروق
فيا طيب رياها ويا برد ظلها   إذا حان من حامي النهار وديق
فلا الظل من برد الضحى تستطيعه   ولا الفيء من برد العشي تذوق
فقد ذهبت عرضا وما فوق طولها   من السرح إلا عشه وسحوق
وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة   من السرح موجود على طريق[3]

وواضح أن حميدا في هذه الأبيات لا يعني شجرة حقيقة، ولكنه يرمز بها إلى من يحب، فهذه الشجرة الندية الوارفة الظل التي تروق على كل الأشجار، وتزيد عليها بهاء، إنما هي محبوبته، وهو لا يلبث في آخر الأبيات أن يكشف عن خبيء نفسه فيصرح بأنه يعلل نفسه بالسرحة ولكن أعين الرقباء راصدة له.

ولعل حديث حميد في قصيدة أخرى عن الحمامة كان رمزا آخر اتخذه ليبث

---

(١) البيان والتبيين ٢: ١٠٠.

(٢) الاستيعاب ١: ١٣٩.

(٣) الاستيعاب: السرحة شجرة وارفة الظل من شجر العضاه، الافنان هنا بمعنى الأنوع. وتروق بمعنى تعوق. والوديق شدة حر. والعشة والسحوق النخلة الطويلة

ذات نفسه، ويكشف عن وجده فهو يقول:

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت ساق حر ترحة وترنما
مطوقة طوقا وليست بحلية ولا ضرب صواغ بكفيه درهما
تبكي على فرخ لها ثم تغتدى مولهة تبغي له الدهر مطعما
تؤمل منه مؤنسا لانفرادها وتبكي عليه إن زقا أو ترنما
عجبت لها أني يكون غناؤها فصيحا ولم تفغر بمنطقها فما
فلم أر محزونا له مثل صوتها ولا عربيا شاقه صوت أعجما
كمثلي إذا غنت ولكن صوتها له عولة لو يفهم العود أرزما[1]

وفي هذه القصيدة لا يتخذ حميد أسلوب الرمز فحسب، ولكنه يخلط مشاعر نفسه بإحساس الحمامة في براعة، بحيث نحس مشاركة وجدانية بينهما. وهكذا كان لتوجيه عمر رضي الله عنه أثره العميق في تطور أسلوب الشعر العربي، بحيث تخلى - إلى حد ما - عن أسلوب الوصف المباشر الذي عرف به، واتجه إلى الرمز، كما جعل الشعراء يستبطنون أنفسهم ليعبروا عن كوامنها بمشاركة مظاهر الطبيعة من حولهم.

أما سحيم عبد بني الحسحاس الذي كان فاحشا في تغزله وتشبيبه فقد أنذره عمر بالقتل حين سمعه ينشد قوله:

ولقد تحدر من كريمة بعضهم عرق على جنب الفراش وطيب[2]

وقد قتلته بالفعل قبيلة من شبب بها هذا التشبيب الفاحش الذي نهى عنه الإسلام. ومثلما منع عمر رضي الله عنه التشبيب منع الهجاء، بل نهى أن ينشد الناس شيئا من مناقضة الأنصار ومشركي قريش، وقال: في ذلك شتم الحي والميت، وتجديد الضغائن، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام[3].

(١)ديوان حميد بن ثور: ٧.
والمطوقة الحمامة التي في عنقها ريش مختلف اللون مثل الطوق، وزقا بمعنى صاح، والعود الجمل المسن، وأرزم حن.
(٢) الشعر والشعراء ١: ٤٠٩.
(٣)الاستيعاب ١. ١٢٧

فكأن عمر يرى ـ وهذا حق ـ أن الهجاء الذي كان بين المسلمين والمشركين قد انقضت أسبابه، وأن التصريح به من جانب الرسول كان لفترة محدودة لرد عادية الكفار عن الإسلام.

وموقف عمر من الشعراء الهجائيين في عصره هو موقف الحريص على أعراض المسلمين وعلى تنفيذ أحكام الإسلام ومبادئه. فحين رفع إليه هجاء النجاشي لبني العجلان أسلم النظر في الأمر لحسان بن ثابت، فرارا من التعرض لأحد الفريقين، بعد أن حاول أن يدرأ الحدود بالشبهات فقد سأل عن أبيات الهجاء فقيل له:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر: إنما دعا عليكم ولعله لايجاب، فقالوا أنه قال:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر: ليتني من هؤلاء، قالوا فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أقل للكاك (يعني الزحام)، قالوا: فإنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر: كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه، قالوا فإنه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبد وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك فقالوا فاسأل حسان بن ثابت فسأله فقال: ما هجاهم ولكنه سلح عليهم. وكان عمر ـ كما يقول ابن رشيق ـ أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكنه أراد أن يدرأ الحدود بالشبهات، فلما حكم حسان على النجاشي سجنه وقيل أنه حده [1].

---

(١) العمدة ١: ٥٩.

وفعل عمر رضي الله عنه مثل ذلك مع الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر، فقد سمع قوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال عمر رضي الله عنه على طريقته في درأ الحدود بالشبهات: ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا، قال إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا، فلما حكم حسان بأنه هجاه. قال عمر للحطيئة: يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين فحبسه[1]. وحين أطلقه بعد استعطافه بأبيات مؤثرة قال له: إياك والهجاء المقذع. قال: ما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال: المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم. فقال الحطيئة: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم مني بمذاهب الشعر[2].

وفي ذلك يقول الجاحظ: كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أعلم الناس بالشعر، ولكنه إذا ابتلى بالحكم بين النجاشي والعجلاني، وبين الحطيئة والزبرقان كره أن يتعرض للشعراء. واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره.. فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم، وكان الذي ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعا للفريقين، ويكون هو قد تخلص بعرضه سليما، فلما رآه من لا علم له يسأل هذا وهذا ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيره[3].

وكان عمر رضي الله عنه لا يقبل رفث القول حتى ولو كان على سبيل المجاز، أو بناء على قوله تعالى ﴿وأنهم في كل واد يهيمون﴾، فقد رفع إليه أن النعمان بن عدي الذي ولاه على ميسان قال:

ألا أبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قرية وصناجة تجذو على كل منسم
لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجواسق المتهدم

(١) الشعر والشعراء ١: ٣٢٨.
(٢) العمدة ١: ١٦٢.
(٣) البيان والتبيين ١: ١٣٥.

إذا كنت ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلم

فقال عمر رضي الله عنه: والله أنه ليسوءني تنادمهم، فمن لقيه فليعلمه أني قد عزلته، وكتب في عزله. فلما قدم عليه قال: والله يا أمير المؤمنين ما صنعت شيئا مما ذكرت، ولكني أمرؤ شاعر أصبت فضلا من قول فقلته، فقال عمر: والله لا تعمل لي عملا أبدا[1].

وقيل أنه رضي الله عنه نفى أبا محجن الثقفي خارج الجزيرة العربية لشربه الخمر ومجاهرته بذلك في شعره، ولكنه من ناحية أخرى كان شديد التأثر بالشعر الصادق الإحساس، يهتز له وينفعل به ولعل أصدق مثل لذلك أن أمية بن الاسكر لما ذهب ابنه كلاب مع الجيوش الإسلامية في حرب فارس، اشتاق إليه وعبر عن ذلك الشوق في شعر كثير، فمما قاله فيه:

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله إن حفظ الكتابا
أناديه فيعرض في اباء فلا وأبي كلاب ما أصابا
وإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السرابا
تركت أباك مرعشة يداه وأمك لا تسيغ لها شرابا
إذا نعب الحمام ببطن وج على بيضاته ذكرا كلابا[2]

ويبدو أن هذا الشعر لم يصل إلى عمر رضي الله عنه، فتوجه إليه ابن الاسكر بأبيات قال فيها:

أعاذل قد عذلت بغير علم وما يدريك ويحك ما ألاقي
فأما كنت عاذلتي فردي كلابا إذا توجه للعراق
سأستعدي على الفاروق ربا له رفع الحجيج إلى بساق
إن الفاروق لم يردد كلابا إلى شيخين هامهما زواقي[3]

فبلغ عمر شعره فكتب، إلى سعد يأمره بعودة كلاب، فلما قدم أرسل

(1) أنساب الأشراف ١: ٢١٧ الحنتم الجرة الخضراء، والمنسم المذهب والطريق.
(2) الإصابة ترجمة أمية بن الأسكر.
(3) المصدر نفسه: بساق جبل بعرفات.

عمر رضي الله عنه إلى أمية فقال له: أي شيء أحب إليك؟ قال النظر إلى كلاب، فدعاه له، فلما رآه اعتنقه وبكى بكاء شديدا، فبكى عمر وقال: يا كلاب الزم أباك وأمك ما بقيا.

وتكررت هذه القصة لكثرة الشباب الذين خرجوا من جزيرتهم، ينشدون رضوان الله في المغازي، إذ صور المخبل السعدي جزعه على رحيل ابنه شيبان، وكذلك فعل البريق بن عياض الهذلي، وأبو خراش، وفي كل مرة يرق قلب عمر رضي الله عنه ويتأثر بهذه الأشعار، ويرد غيبة أولئك الراحلين، حتى أخذ ينهي من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برابهم[1] .

ويذكر لعمر رضي الله عنه موقف مع حسان بن ثابت قد يفهم منه لأول وهلة أنه يعارض انشاد الشعر، فقد مر بحسان وهو ينشد في مسجد الرسول صلوات الله عليه، فقال له: أرغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان: دعني يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد أنشدت في هذا المسجد من هو خير منك، فما يغير على ذلك، فقال عمر: صدقت[2] .

وإذا صح هذا الخبر فهو يعني أن عمر رضي الله عنه ربما كان يجل المسجد عن أن ينشد فيه شعر، فلما ذكره حسان بما كان في عهد الرسول أقر في تسليم، ولعله خشي أن يكون انشاد حسان للمناقضات بين المسلمين والمشركين، ورأى عمر فيها أنها انتهت بزمانها، اشعالاً للفتن من جديد، وأياً كان الوجه الذي اعترض به عمر رضي الله عنه على حسان فهو لا ينبيء عن امتهان الشعر أو الغضّ منه، وكل ما قدمناه من المواقف العمرية يبين بجلاء احتفاله بالشعر في الحدود الإسلامية المثالية، حتى ليروي عنه كثير من الأقوال التي تحض على رواية الشعر، فقد قيل أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري

---

(١) الأغاني ٢١ : ٦٩، ديوان الهذليين ٢: ١٧٠.

(٢) العمدة ١ : ١٩ والرواية في صحيح مسلم ١٥ : ٤٥ أن عمر رضي الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال:

قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أجب عني اللهم أيده بروح القدس، قال: اللهم نعم.

يقول: مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب[1] وذكر أنه قال لابنه: يا بني أنسب نفسك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يقترف أدباً. وروي عنه أيضاً قوله: ارووا من الشعر أعفه: ومن الحديث أحسنه، ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهي من مساوئها[2].

وكان عمررضي الله عنه كثيراً ما يسأل عبدالله بن عباس عن الشعر والشعراء لاحاطته الواسعة بشعر الجاهلية والإسلام، وقد سلك ابن عباس في اعتداده بالشعر مسلكاً علمياً أنكره جماعة من المتأخرين لا علم لهم كما يصفهم ابن الأنباري[3]، وما أنكروه هو الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك عنه، كما روي عنه أيضاً أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر. وقد أثرت عنه مجموعة من الأجوبة عرفت بمسائل نافع بن الأزرق، وكانت مناسبتها أن نافع بن الأزرق قال لنجلة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فجاءا إلى ابن عباس وهو جالس بفناء الكعبة، وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقاما إليه فقالا: انا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فقال ابن عباس سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى «عن اليمين وعن الشمال عزين». قال: العزون حلق الرفاق؛ قال: وهل تعرف العرب ذلك قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

---

(١) العمدة ١: ١٥

(٢) الجمهرة: ١٨.

(٣) الاتقان ١: ١١٩

فجاؤوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

وظل نافع بن الأزرق يسأل وابن عباس يجيبه على هذا النحو، لتفسير كلمة أو لإيضاح مسألة بلاغية، حتى بلغ ما سأل عنه نافع أكثر من مائتي مسألة[1] . وقد أجاب عنها ابن عباس بأكثر من مائتي بيت من الشعر، بعضها لشعراء جاهليين، وبعضها الآخر لاسلاميين. ولم يكن ابن عباس في استشهاده بالشعر ملتزماً اتجاهاً اسلامياً خالصاً، فهو أحياناً يستشهد ببيت في الخمر كقول امرىء القيس:

رب كأس شربت لا غول فيها وسقيت النديم منها مزاجا

وكقول الأعشى:

وصهباء طاف يهود بها فأبرزها وعليها ختم

وتارة يستشهد ببيت في الغزل كقول القائل:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

أو قول امرىء القيس:

دار لبيضاء العوارض طفلة مهضومة الكشحين ريا المعصم

وتارة ثالثة يستشهد ابن عباس بأبيات في الهجاء المقذع. ولا بأس عنده من الاستشهاد بشعر لأحد الذين كانوا يعادون الإسلام مثل أمية بن أبي الصلت. أو بعض الذين عرفوا بالتعهر في شعرهم كامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة. وواضح أن ابن عباس كان رائده في اختيار هذه الأبيات موضع الشاهد فيها. وهي سبيل هذا الاتجاه العلمي تغاضي هوناً ما عن وجهة النظر الإسلامية تجاه موضوعات الشعر، ولكنه كان مصيباً في الإستناد إلى الشعر لإيجاد أساس للتفسير القرآني، مادام الشعر ديوان العرب ومنتهى علمهم، والقرآن عربي في لفظه وبيانه، وفي ذلك نزلت آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿إنا

---

(١) الاتقان ١ : ١٢٠ وما بعدها، جمهرة أشعار العرب: ١ وما بعدها.

أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وقال ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾.

وواضح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مقتنعاً كل الاقتناع باتجاه عبدالله بن عباس في تفسيره للقرآن، بدليل تقريبه له وإعجابه برجاحة عقله وسعة علمه.

وكان لعثمان بن عفان رضي اللّه عنه في عهد خلافته موقف مشابه لما فعله عمر مع الحطيئة والنجاشي، فقد كان ضابيء بن الحارث البرجمي شاعراً هجاء خبيثاً، استعار كلباً من بعض بني جرول بن نهشل فطال مكثه عنده، فطلبوه فامتنع عليهم، فعرضوا له فأخذوه، فغضب ورمى أمهم بالكلب .واسمه قرحان، فاستعدوا عليه عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، فحبسه وقال (والله لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حي لأحسبنه نزل فيك قرآن، وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك). ولم يزل في حبس عثمان رضي اللّه عنه حتى مات[1] . وقد بلغ من خبث هذا الشاعر وانحرافه عن جادة الدين والخلق أنه حاول اغتيال عثمان رضي اللّه عنه حين عرض أهل السجن يوماً، وقال في ذلك أبياتاً عنيفة:

فلا يعطين بعدي امرؤ ضيم خطة حذار لقاء الموت والموت قاتله
فلا تتبعني أن هلكت ملامة فليس بعار قتل من لا تقاتله
هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله[2]

وهذا الموقف من عثمان رضي اللّه عنه هو الموقف الإسلامي الذي يمنع الهجاء ويجعل لسان من قاله هدراً. أما موقفه الذاتي من الشعر، فقد نسب إليه بيتان هما قوله:

غني النفس يغني النفس حتى يكفها وإن عضها حتى يضر بها الفقر

(١) الشعر والشعراء ١: ٣٥٠.
(٢) طبقات فحول الشعراء ١: ١٧٤.

وما عسرة فاصبر لها أن لقيتها لكائنة إلا سيتبعها يسر

كما نسبت إليه قصيدة في رثاء الرسول[1] ولكني لا أعتقد بصحة نسبة هذا الشعر إليه، إذ كان رضي الله عنه غير معروف بمعالجة أساليب البيان، بعكس الخليفة الرابع علي بن أبي طالب الذي كان بارعاً في خطابته وأقواله، والذي ينسب إليه قدر كبير من الشعر، حمل فيه الكثير عليه، ولكن لا بد أن بعض هذا الشعر صحيح النسبة إليه[2] . ومثلما نسبت إلى الخلفاء الراشدين جميعاً قصائد في رثاء الرسول صلوات الله عليه، كذلك نسبت إلى علي رضي الله عنه قصيدة جيدة السبك صادقة العاطفة مطلعها:

ألا طرق الناعي بليل فراعني وأرقني لما استقر منادياً[3]

ومن الأشعار الحماسية التي تنسب إليه رضي الله عنه قوله يوم صفين:

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحمير وكندة في لخم وحي جذام
تيممت همدان الذين هم هم إذا ناب دهر جنتي وسهامي[4]

وكانت وقعة صفين مليئة بالأشعار الحماسية التي يفيض بها كتاب نصر بن مزاحم[5] ، بل أن معاوية بن أبي سفيان أحس دور الشعر الخطير في هذه المعركة إذ يقول: اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين، وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن عن الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الاطنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح

---

(١) الجمهرة: ٢٠.
(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ١: ١٧٦.
(٣) الجمهرة: ١٩، أنساب الأشراف ١: ٥٩٢.
(٤) العمدة ١: ٢١.
(٥) انظر: وقعة صفين: ١٣٧، ٣١٢، ٣٤٧، ٣٧٦.

واقحامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح[1]

والحقيقة أن تطور الأحداث السياسية منذ مقتل عثمان رضي الله عنه، جعل للشعر مسرباً آخر غير الفتوحات الإسلامية وما كان يعرض للشعراء من شئون حياتهم، إذ اصطرع المسلمون فيما بينهم اصطراعاً عنيفاً، وشبت العصبيات القبلية القديمة التي هدأ الإسلام من ثائرتها في عهد الرسول وخلفائه الأولين، وبدأت هذه العصبيات تتطور لتأخذ شكل الأحزاب السياسية، فأصبح فريق من المسلمين مع خليفتهم علي رضي الله عنه، وفريق آخر مع معاوية، يرفعون شعار الثأر لعثمان رضي الله عنه، ويحاولون الاستئثار بالسلطان. ووجد الشعر متنفساً جديداً في هذا الاصطراع السياسي العنيف، فلم يعد مجرد هجاء ومديح، ولكنه أصبح دعاية سياسية سافرة للأحزاب الثلاثة التي تكونت في خلال هذه المحنة التي مرت بالجماعة الاسلامية: الحزب العلوي، والحزب الأموي، وحزب الخوارج. ونسي الشعراء في خلال تلك المعارك الكلامية كل الحدود التي رسمها الإسلام من قبل للشعر، فنرى النجاشي يهجو أهل الكوفة أنصار علي رضي الله عنه هجاء قبيحاً فاحشاً إذ يقول:

إذا أسقى الله أرضاً صوب غادية فلا سقى الله أرض الكوفة المطرا
التاركين على طهر نساءهم والناكحين بشطى دجلة البقرا
والسارقين إذا ما جن ليلهم والتالين إذا ما أصبحوا السورا[2]

ولم ينتفض الهجاء وحده في نفوس الشعراء بصورة أشنع مما كان في الجاهلية، ولكن أصبح المديح أيضاً حافلاً بالمبالغات القديمة والتزيد والكذب، وهذه أمور نهى عنها الإسلام كما ذكرت من قبل، والتزمت إلى أبعد حد في

---

(١) العمدة ١ ١٥
(٢) خزانة الأدب ٤ ٥٧

عصر الرسول وخلفائه الراشدين. ذلك أن عنصر الصدق أساس أخلاقي، والإسلام في موقفه من الشعر يستهدف الغاية الأخلاقية التي لا تتفق مع العبارة التي كانت شائعة بين العرب «أعذب الشعر أكذبه». بل لقد ذكر أن مهلهل بن ربيعة إنما سمي كذلك لأنه كان يتكثر ويدعي في قوله بأكثر من فعله[1].

ولهذا كان حسان بن ثابت يمثل وجهة النظر الإسلامية حين قال:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه   على المجالس إن كيساً وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وقد كان حسان يدرك جيداً هذا الفارق الذي يميز بين الشعر الجاهلي والشعر في الإسلام، ولهذا رد على من قال له لان شعرك أو هرم شعرك في الإسلام فقال: يا ابن أخي أن الإسلام يحجز عن الكذب وأن الشعر يزينه الكذب[2].

وقد ظل النقاد العرب إلى عصر متأخر يرتبطون بالمثل الجاهلية، فابن رشيق لا يتحرج أن يقول (ومن فضائل الشعر أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه، وحسبك ما حسن الكذب واغتفر له قبحه)[3]. ولهذا نجد السيوطي يقول أن الحكمة في تنزيه القرآن عن الشعر لأن قصارى الشاعر التخييل بتصور الباطل في صورة الحق والإفراط في الإطراء، والمبالغة في الذم، والإيذاء دون إظهار الحق وإثبات الصدق، ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمي أصحاب البرهان القياسات المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية، وقال بعض الحكماء «لم ير متدين صادق اللهجة مفلق في شعره»[4].

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ٧.
(٢) الاستيعاب ١: ١٢٧.
(٣) العمدة ١: ١٠.
(٤) الاتقان ٢: ١٢٣.

وقد أحس هذا الفارق الفني الدقيق الذي أدركه من قبل بعض شعراء بني أمية الذين اتصلوا بالخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي كان حاكماً إسلامياً مثالياً في تمسكه بحدود ما أنزل الله. فقد ذكر حماد الراوية عن كثير عزة أنه قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة له واخاء، ونحن لا نشك أنه يشركنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خناصره، لقينا مسلمة بن عبدالملك وهو يومئذ فتى العرب فسلمنا عليه فرد السلام ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر قلنا: ما وضح لنا خبر حتى انتهينا إليك. ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا، فقال: إن يك ذو دين بني مروان ولي وخشيتم حرمانه فإن ذا دنياها قد بقي ولكم عندي ما تحبون.. فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الأذن هو وغيره فلم يؤذن لنا، إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أني دنوت من عمر فسمعت كلامه فتحفظته كان ذلك رأياً ففعلت، فكان ما حفظت من قوله يومئذ: لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه فترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم في كلام كثير. ثم قال أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عياتي وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق، ثم بكى حتى ظننا أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل، وانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرج (أي ضرب) من الشعر غير ما كنا نقوله لعمر وآبائه، فإن الرجل أخروي وليس بدنيوي، إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة فأذن لنا بعدما أذن للعامة، فلما دخلت عليه سلمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين طال الثواء وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك ايانا وفود العرب، فقال: يا كثير إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، وفي واحد من هؤلاء أنت؟ قلت ابن السبيل منقطع به، وأنا ضاحك، قال ألست ضيف أبي سعيد؟ قلت بلى، قال: ما أرى من كان ضيفه منقطعاً به. ثم قلت: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في

الإنشاد، قال: نعم، ولا تقل إلا حقاً[1] . فأنشد كثير قصيدته التي مطلعها:

عــرج بــأطــراف الــديــار وسلم　　وإن هــي لم تــســمــع ولم تتــكلم

وفيها يمدح عمر بن عبدالعزيز مدحاً خالياً من الأوصاف الحسية، المعروفة والفضائل الجاهلية التي كانت لا تزال تتردد أصداؤها في الشعر، بل نراه التزم الصدق والفضائل الإسلامية العامة والشمائل التي كان يتحلى بها عمر خاصة، وابتعد عن كل مبالغة وتزيد، قال:

نــزور امــرءاً أمــا الالــه فيتقي　　وأمــا بفعــل الصــالحين فيــأتمي
وفي الحلم والإسلام للمرء وازع　　وفي تــرك طــاعــات الفؤاد المتيم
بصــائــر رشــد للفتى مستبينــة　　وأخــلاق صــدق علمهــا بــالتعلم
وليت فلم تشتم عــليــاً ولم تخف　　بــريــاً ولم تقبــل شهــادة مجــرم
وأظهرت نور الحق فــاشتد نــوره　　على كل لبس بــارق الحق مــظلم
وصدقت بالفعل المقال مــع الذي　　أتيت فــأمسي راضيــاً كــل مسلم
وقــد لبست لبس الملوك ثيــابهــا　　تــراءى لك الــدنيا بكف ومعصم
وتــومض أحيــانــا بعين مــريضــة　　وتبسم عن مثــل الجمان المنــظم
فــأعــرضت عنهــا مشمئــزاً كــأنمــا　　سقتــك مــدوفــاً من سمام وعلقم
ومــا زلت تــواقــاً إلى كــل غــايــة　　بلغت بهــا أعــلى البنــاء المقــدم
فلما أتــاك الملك عفــواً ولم يكن　　لــطالب دنيــا بعــده من تكلم
تركت الذي يفني وإن كان مؤنقاً　　وآثــرت مــا يبقى بــرأي مصمم

هذا مع أننا نرى كثيراً في جميع مدائحه يلتزم القواعد الفنية والمثل القديمة، فهو يمدح يزيد بن عبدالملك فيقول:

إلى الأبيض الجعد ابن عاتكة الذي　　لــه فضل ملك في الــبرية غــالب

ويقول مادحاً عبدالملك بن مروان:

يحيــون بســامــين طــوراً وتــارة　　يحيون عباســين شــوس الحــواجب

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٣١٧.

من النفر البيض الذين إذا انتجوا أقرت لنجواهم لؤي بن غالب
كريم يؤول الراغبون ببابه إلى واسع المعروف جزل المواهب[1].

ولو أن كثيرا سار في مديحه على الهدى الذي اقتبسه من عمر بن عبد العزيز لعمق شعر المديح بالحديث عن الفضائل النفسية دون الحسية، ولابتعد عن الوصف بالقوة البدنية والهيبة وما أشبه من الصفات الحسية التي كثر حديث الشعراء عنها. ولكن الحقيقة أن السياسة قد جنت على تطور الشعر وجعلته يرتد ردة جاهلية، وما لبث أن اتصل بتيارات التأثير الأجنبي عقب حركة الفتوح ليصير بعيدا في معظمه عن الحدود الأولى التي رسمها الإسلام واستهدف بها غاية أخلاقية، وتلك طبيعة البشر في كل زمان ومكان، إنهم يريدون أن ينفثوا ما في صدورهم منطلقين غير متحرجين، ولكن الرسول الكريم قد بلغ رسالة الإسلام في صدق وثبات مصداقا لقوله تعالى ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[2].

تلك هي قضية الإسلام والشعر عرضنا لها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف، وشهدناها بين النظرية والتطبيق في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. ولعلنا نستطيع ـ بناء على ما قدمناه من شواهد ـ أن نؤكد أن دعوى وهن الشعر بعد الإسلام قائمة على غير دليل، وأن الإسلام لم يرفض الشعر وإنما دعا إلى التزام قواعد أخلاقية فيه، فالموهبة التي يضفيها الله على بعض عباده ينبغي أن توجه بعيدا عن الشر والسوء، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه (قولوا بقولكم ولا يستحوذن عليكم الشيطان)[3] والكلمة تخرج من اللسان يكون لها أبعد الأثر في النفس، فما بالك إذا كانت شعرا في أمة ترتبط حياتها بالشعر. ولما كانت غاية الدين طاعة الله وجنته، لهذا أوجب أن تكون هناك رقابة على حصائد الألسنة، فقد كان

---

(١) انظر: ديوان كثير.
(٢) المائدة. ٦٧.
(٣) البيان والتبيين ١ ١٤٣

الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم)[1] :

وفي ذلك يقول الجاحظ «وما نشك أنه عليه وعلى آله السلام قد نهى عن المراء وعن التزيد والتكلف، وعن كل ما ضارع الرياء أو السمعة والنفج والبذخ، وعن التهاتر والتشاغب وعن المغالبة والمماتنة، فأما نفس البيان فكيف ينهي عنه وأبين الكلام كلام الله[2] ولهذا نرى الشعر في حد ذاته بوصفه تعبيراً عن النفس يلتزم بغاية أخلاقية في أعز مكان في الإسلام حتى لقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (فضل لسانك تعبر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة)[3] .

وفي هذا الحديث تكريم للشعر والشعراء، وإشادة بالدور الإنساني الذي يقوم به الشعر من جهة أن الشاعر الذي أوتي موهبة الشعر لا يعبر عن نفسه فحسب، وإنما يعبر عن اخوانه في البشرية، ورحم الله أبا تمام إذ يقول:

احفظ وسائل شعر فيك ما ذهبت خواطر البرق إلا دون ما ذهب
يعدون معتريات في البلاد فما يزلن يؤنسن في الآفاق معتربا
ولا تصفها فما في الأرض أحسن من نظم القوافي إذا ما صادفت أدبا

---

(١) البيان والتبيين ١: ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه ١: ١٥١ النفج: فخر الإنسان بما ليس فيه والبذخ الكبر، والسمعة الرياء، والمماتنة المماطلة والمباعدة في الغاية.

(٣) المصدر نفسه ١: ١٤٣..

الصراع القبلي في الشعر الأموي

حروب قيس وتغلب

تغلب وبكر أعظم قبائل ربيعة شأنا ويقال أن جد هذه القبيلة اسمه دثار وأن أباه تمنى له أن يغلب فلحق به هذا الاسم. على أننا إذا قسناه بشواهده في اللغات السامية جميعا مثل يشكر ويذكر ويعقوب واسحق وغيرها فإننا لا نذهب في تفسيره إلى أنه صيغة المخاطب المذكر من غلب وإنما هو - كما يقول (كندرمان) -[1] صيغة المؤنث الغائب. وتدل تغلب من حيث التذكير والتأنيث على أن اسم القبيلة أقدم من الأسطورة المتعلقة بجدها، زد على هذا أنه ورد في شعر الأخطل وجرير والفرزدق قولهم تغلب ابنة وائل لا ابنه، يقول الأخطل مثلا:

أمـال عليهم تغلب ابنـة وائـل فكـانوا عليهم مثـل راغيـة البكـر

ويذهب (نلدكه) برغم هذا إلى أن لفظ تغلب وهو اسم فعل لا شك فيه أصله صيغة جمع تصف القبيلة كلها بالغلبة[2]. وهذا في رأيي قد لا يتفق مع صيحتهم في الحرب: تغلب تغلب، ولا مع قول الآخرين تغلب امرأة

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية.
(٢) المصدر نفسه.

اشتهرت في العصور القديمة فنسب إليها أبناؤها.

ويقول الجوهري أن تغلب تسمى أيضا الغلباء والنسبة إليها الغلباوي. وينسب لتغلب فيقال التغلبي (بفتح اللام) والذي عليه الجمهور التغلبي (بكسرها)[1].

ومجموعة قبيلة تغلب قليلة الفروع إذا قيست بقيس مثلا، وأكبر بطنين من بطونها بنو جشم بن بكر ومالك بن بكر الذي أنجب أسامة وانحدر من صلب أسامة حمدان بن حمدون جد الحمدانيين.

وقد نزل بنو تغلب وغيرهم من ربيعة هضاب نجد والحجاز وتخوم تهامة حينما تشعبت القبائل، ثم انطلقوا نحو الشمال قاصدين الجزيرة في هجرات بطيئة استغرقت قرونا ولم تنته إلا في العهد الإسلامي، إذ استقروا في المنازل التي عرفت فيما بعد باسم (ديار ربيعة).

وقد نقل (فستفلد) عن البكري أن منازل تغلب في القرن الخامس الميلادي (على حدود الشام) ولم يستق هذه المنازل إلا من الشواهد الشعرية[2]. وكانت تغلب في القرن السادس ما تزال شاغلة جزءاً من هذه البقاع على أنها أخذت توطد أقدامها شيئا فشيئا على المجرى الأدنى لنهر الفرات. وكانت قصبة منازل تغلب في القرن الأول للهجرة وسط الجزيرة بين قرقيسيا وسنجار ونصيبين والموصل شمالا وعانة وتكريت جنوبا وكان هذا الاقليم يقرب أن يكون شبه جزيرة، إذ يحده نهر الخابور ودجلة والفرات، وعاشت جماعة من تغلب في مضارب على الضفة اليمنى لنهر الفرات عند منبج والرصافة، وصعدوا فيما بعد إلى جوار قنسرين ودمشق، وفي الجنوب حتى عين التمر وجبل الإهه. كما عاشوا أيضا بين خفان والعذيب، وعبرت جماعة أخرى في

---

(١) الصحاح مادة غلب.

(٢) انظر معجم ما استعجم.

الوقت نفسه دجلة إلى أذربيجان كما يقول الأب لامنس.

على أن أكثرية التغلبيين ظلوا على بداوتهم متخلقين بأخلاق الأعراب، وإن كان زعيمهم عبد المسيح يخبر خالدا بأنهم ليسوا أعرابا وإنما هم نبط متعربة أي مزارعون تخلقوا بأخلاق البدو كما ذكر المسعودي في مروج الذهب[1].

ويتحدث الأخطل في شعره عن حقول القمح والسهول الخصبة التي تنتج الكثير من الكرم فيقول:

وبلدا بعد ضناك واسعا

وحنطة طيسا وكرما يانعا

ونعماً لابا وشاء راتعا[2]

ونحن نعلم أن العرب كانوا يعيرون أهل الزرع لأنهم يرون أن الزراعة لا تحتاج إلى جهد أو نشاط. ويصور الأعشى لنا ذلك في هجائه ايادا - وهي قبيلة نصرانية تعيش إلى جوار تغلب وبينهما رحم - بقوله:

لسنا كمن جعلت أياد دارها تكريت تنظر حبها أن يحصدا

قوما يعالج قملا أبناؤهم وسلاسلا أجدا وبابا مؤصدا[3]

والعجيب كما يقول (كندرمان)[4] أنهم كانوا ملاحين وكانت تجارة السفن تدر عليهم المال وتجلب لهم السلطان. ونحن لا نفهم ملاحظة التبريزي في شرحه للمعلقات: (لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس) إلا إذا تذكرنا أن طريق الهند يمر بأرضهم وأن الجزيرة كانت تمر بها - بصفة عامة -

---

(١) مروج الذهب ١: ٣١٤.

(٢) ديوان الأخطل: ٣١١ وتنسب الأبيات لليلى بنت الحارث التغلبية (الكامل ٤: ٤) والضناك: الضيق والطيس: الكثير، ولابا بمعنى الإبل المجتمعة الكثيرة العدد.

(٣) ديوان الأعشى: ٢٦٧.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية.

الطرق من جميع الاتجاهات وهذا يفسر لنا ترفق عمر بهذه القبيلة التي تحتل مكانا هاما على حدود الدولة، المتاخمة للروم.

وقد اتصلت تغلب بجيرانها من النصارى فتسربت النصرانية إليهم قبيل ظهور الإسلام وانتموا إلى النحلة اليعقوبية، فكانت لهم اسقفية معروفة ومعابد مشهورة في بعض المدن كمعبد «مارسرجيس» في الرصافة وهو شفيعهم الخاص، يبالغون في إكرامه، ويستظلون في الحرب بلوائه كما يفهم من قول الأخطل في أرجوزته:

لما رأونا والصليب طالعا
«ومارسرجيس» وموتا ناقعا[1]

هذا ومع أن الدين الجديد لم يتغلغل في قلوبهم - شأن البدو عامة - إلا أنهم استمسكوا به وعدوه عرضا يذودون عنه، وشرفا إذا ثلم كان فيه عارهم.

ولهذا لم تفلح جميع المحاولات التي بذلها المسلمون في القرون الأولى للإسلام لادخالهم في دينهم، ويستثنى من ذلك جماعة صغيرة منهم، لعلها تلك التي كانت تعيش إلى جوار طيء. ونحن نعلم أنه في السنة التاسعة للهجرة قدم وفد من تغلب بعضهم مسلمون وبعضهم نصارى عليهم صلبان مذهبة إلى المدينة، وعقد النصارى منهم صلحا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، أبقوا فيه على دينهم على ألا ينصروا أولادهم، ويقول (كندرمان) (على أن ما روى من أن عمر عامل تغلب بعد ذلك على شروط تشبه هذه يجعلنا نقطع بأن ذلك الخبر من وضع المتأخرين)[2] ولست أرى في نهج عمر نهج النبي في معاملته لتغلب دليلا على الوضع في هذا الخبر وإنما هو توكيد له، فقد كان عمر يستلهم خطى النبي في سياسته، أما شك (كندرمان) في القصة التي رواها الأصبهاني وفحواها أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد الخيل بإرغام الأمير التغلبي الجرار على الدخول في الإسلام بحد السيف - ويقال أنه رفض

---

(١) في الكامل وسنا ناقعا ٤ : ٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية.

ذلك فقتل - فهذا الشك له سند وبه دليل، لأنه أولا يتعارض مع قصة الصلح بين النبي وتغلب وثانيا لأن النبي لم يكن من سياسته إجبار أهل الكتاب على الإسلام، وإنما كان يجبر عباد الأوثان فحسب.

وعلى كل فإن الحوادث التاريخية التي تعاقبت فيما بعد تدلنا على أن تغلب كانت تستغل جميع الفرص لمهاجمة المسلمين، وأرى تعليلا لذلك شعورها بالضعف والاستخذاء في جماعة المسلمين، وحين ولي عمر الأمر خيرهم بين الدخول في الإسلام والمساواة بالمسلمين في كل شيء، أو دفع الجزية وليس في هذا اكراه أو اعنات من جانب عمر، فقد عرض عليهم الإسلام ولم يجبرهم عليه، وكان هذا شأنه دائما، فقد دعا مرة عجوزا من أهل الكتاب إلى الاسلام وأخذ يشرح لها ما في دين محمد من نبل وسمو فقالت له «يا أمير المؤمنين قد دنا مني القبر» فرفع عمر يديه وقال: «اللهم اشهد لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ولما آنس الخليفة منهم أحجاما عن الدعوة سمح بأن تكون جزيتهم مثل صدقة المسلم (على ألا ينصروا وليدا ممن أسلم آباؤهم) كما أن عليهم إطعام جيوش المسلمين التي تمر بأرضهم وجلب الميرة لها. وقد أدت أنفة تغلب الذين لم يرضوا عن كلمة الجزية إلى قبولهم الصدقة مضاعفة، كما أنهم لم يستطيعوا التهرب مما فرضه عليهم عمر من شروط[1].

وقد وردت في كلام البلاذري عبارة منسوبة لابن عباس يقول فيها:

(لا تؤكل ذبائح نصارى بني تغلب ولا تنكح نساؤهم: ليسوا منا ولا من أهل الكتاب)[2] وهذا في رأيي - يخالف عهد النبي وعهد عمر لتغلب فكلا العهدين يعترف بأن تغلب من أهل الكتاب وإلا لكان للسيف سبيل إلى رقابهم منذ فتح النبي مكة ونظر في أمر القبائل:

وقد مالأت تغلب عليا في أول الأمر بسبب التعصب الذي كان قائما بين الشمالية واليمنية ولكن سرعان ما وجدت تغلب فرصة لرفع يد الذل عن

---

(١) انظر فتوح البلدان (١٨١، ١٨٢) وكتاب الخراج: ١٠، ١٥.
(٢) فتوح البلدان: ١٨٢.

كاهلها وذلك بأن تنحاز إلى معاوية الذي كان يمثل النظرية السياسية بغض النظر عن الدين، بدلا من على الذي كان يمثل النظرية الإسلامية بغض النظر عن السياسة.

وجدت تغلب إذن أن مستقبلها في صفوف بني أمية، فلم تدخر وسعا في شد أزرهم، فحاربت مع معاوية يوم صفين وكذلك مع يزيد يوم الحرة، ثم مع مروان يوم مرج راهط كما يقول (لامنس) في كتابه عن معاوية. ويفتخر الأخطل على قيس بذلك فيقول:

وقد كان يوما راهط من ضلاكم فناء لأقوام وخطبا من الخطب[1]

هذه هي تغلب وابتداء موقفها في التاريخ الإسلامي، فمن هي قيس وما موقفها في هذا التاريخ؟.

قيس عيلان من أكبر وأقوى القبائل العربية الشمالية فهي تضم مجموعة كبيرة من الأحياء أهمها غطفان وهوازن وغنى وباهلة وثقيف وقشير وكلاب وسليم وجشم. وقيس هو أخو خندف بن مضر ويقول (المبرد) في نسب عدنان وقحطان أن قيسا هو الناس بن مضر وأن عيلان كان عبدا لمضر حضن ابنه الناس فنسب إليه قيس. ويقول (فيشر) إن اسم عيلان يوحي بأنه اسم لعبد وإن كان علماء الأنساب يتكلفون شروحا كثيرة تدور حول عيلان فمنهم من يقول (إنه سمي باسم فرس كان يملكه أو باسم جبل ولد عنده أو نشأ إلى جواره، إلى غير ذلك من الأقوال)[2].

وكانت قيس تسكن الجزء المنخفض من تهامة ولكنها بدأت قبل ظهور الإسلام تنزح عن هذه الديار في هجرات ضيقة النطاق، ثم اتخذت هذه الهجرات شكلا آخر بانفصام شبكة العرب تطاحنا على الخلافة وكذا حال أغلب القبائل العربية المدلة بنفسها، إذ شدت رواحلها إلى مناطق النفوذ السياسي لتكون على مقربة من التيارات السياسية وتطوارات الأحداث، وإنا

---

(١) الديوان: ٢٣.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية.

لنرى حتى في عصر الخلفاء الراشدين بعضا من قيس داخل حدود سورية: في حلب وفي الغوطة وحوران وبصرى، وكذلك في مدن فلسطين المختلفة، ثم هم في قرقيسيا والرقة وحران والرحبة حيث أطلق على حيهم (ديار مضر).

وكذلك انبثوا في الكوفة والبصرة ومنطقة البحرين حتى لقد وصل بعضهم إلى أصفهان.

. وحينما اندلعت نار الحرب بين علي ومعاوية اتخذت قيس جانب علي وناصبت معاوية العداء كما فعلت أغلب القبائل العدنانية بسبب العداء المتأصل بينها وبين القبائل القحطانية التي اتخذت جانب معاوية وكانت له سندا وأيدا.

وما أن بسط الأمويون سلطانهم حتى كانت قيس قوة سياسية وعسكرية ترنق صفو بني أمية. ولم تعدم قيس الوسيلة للاشتفاء من الأمويين وأحلافهم من القبائل اليمنية، فأضرمت نار العداوة بينها وبين كلب القبيلة الأولى في قضاعة، وبذلك عادت نار العداء التي أوقدتها حرب تميم والأزد في العهد القديم إلى سابق اشتعالها بين الشماليين والجنوبيين.

وكان لمعاوية اليد الطولى في إشعال نار هذه الحرب لاعتماده على قبيلة كلب اليمنية النازلة في الشام، واصهاره إليها كما فعل عثمان من قبل. حتى صارت عصبية لبني أمية.

ولما هلك معاوية جاء ابنه يزيد فبايعه الناس ما خلا هذا الحي من قيس فإنهم قالوا والله لا نبايع ابن الكلبية[1] وكانت أم يزيد تسمى ميسون بنت مالك بن بحدل الكلبي، فلما أبى هذا الحي من قيس بيعة يزيد ووقعت الحرب بين بني أمية وقيس، وكانت قيس صريحة في عدائها للأمويين منذ كان الخلاف بين علي ومعاوية، بعكس تغلب فكما رأينا اتخذت تغلب جانب علي في مبدأ الخلاف، ثم انحازت إلى معاوية في وقعة صفين. وتفسير ذلك سهل

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٦: ١٣٢.

ميسور، فقد كان لعلي الأمر في مبدأ الخلاف، وكان معاوية يعد خارجا عن طاعته، فاتخذت هذه القلة النصرانية جانب الجمهور من المسلمين. وخاصة أنها تعيش في منطقة النفوذ الموالي لعلي. وسبب آخر تنبئنا به كتب التاريخ يقول إن عليا تذمر من شذوذ تغلب بين العرب عن الإسلام، فهددها بالقتل والسبي إن لم تسلم، وهذا موقف يحتمل التصديق والتكذيب، فلكل دليل من الواقع ومن العقل، وشخصية علي الحازمة في دين الله إذا صدر عنها هذا الاتجاه لم يكن غريبا علينا، غير أننا نعلم سياسة النبي حيال أهل الكتاب ومن بعده عمر فلا يعقل أن يحيد علي عن هذه السياسية، وإنما السبب الجدير بالنظر عندي ما حكاه البلاذري وصاحب العقد من أن عليا رغب في القضاء على تغلب لأنها دأبت على تنصير أولادها على الرغم من عهدها لعمر[1]، وأنها تشرب الخمر فتفسد الناس. وأيا كانت الأسباب فمغزى تهديد علي لتغلب موجود مما أحفظها عليه وغيرها على حكمه. والظاهر أن معاوية ـ وهو السياسي الباقعة ـ قد انتهز هذه الفرصة فاستمال تغلب إلى صفه، لاحتياجه إلى الحلفاء الأقوياء في نضاله .واعدا إياها بعدم التضييق عليها في دينها إذا صار له الأمر بعد. واشتورت تغلب فأنبأتها الحوادث بأن الخلافة تسعى إلى معاوية منجذبة إليه بدهائه وحكيم سياسته، فصرحت سيوفها عندئذ بتعضيدها إياه.

ولما مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين من الهجرة استخلف ابنه معاوية الثاني وأمه من بني حارثة بن جناب الكلبي، فتجدد العداء بين قيس وبني أمية ذوي العصبية الكلبية، لأن ضعف شخصية الخليفة أغرى الطامعين في الخلافة وألب عليها أعداءها. وتعاقبت الحوادث دراكا فاعتزل معاوية الثاني الخلافة بعد أن أوصى أصحابه قائلا: (ليصل بكم حسان بن مالك بن بحدل على الجندين .فلسطين والأردن، والضحاك ابن قيس الفهري على دمشق. والنعمان بن بشير على حمص، وسعيد بن مالك بن يزيد الكلبي على قنسرين، وعبد الله بن زياد على العراق[2]).

---

(١) انظر فتوح البلدان: ١٨٣.

(٢) نقائض جرير والأخطل ٣.

والمتأمل في هذه الوصية يوقن أنها بنيت على غير أساس من العصبية والتحزب لهذا أو لذاك، وليس هذا بمستغرب من شخص زهد في الخلافة عندما كان الناس يقتتلون من أجلها ويتناحرون على مذبح شهوتها، فقد ذكر الطبري أن معاوية الثاني حضر الصلاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد فإنني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمه الله عليه حين فزع إليه أبو بكر، فلم أجده فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى الناس بأمركم فاختاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس وتغيب حتى مات[1]).

واستبقت الأحداث بعد ذلك فوثب كل جند على عاملهم رافعين لواء الثورة، فهناك في فلسطين وثب ناتل بن قيس الجذامي فيمن تبعه من جذام ولخم يدعو إلى ابن الزبير ثائرا بروح بن زنباع الذي أنابه حسان البحدلي عنه في فلسطين. وفي دمشق بقي الضحاك بن قيس عاملا عليها يظهر الطاعة لبني أمية، ويدس إلى هذا الحي من قيس أن ابن الزبير أولى بالأمر. وفي حمص بايع النعمان بن بشير لابن الزبير وخلع بني أمية. وفي قنسرين وثب زفر بن الحارث على سعيد الكلبي فأخرجه منها ودعا إلى طاعة ابن الزبير[2]. وهكذا تقلص النفوذ الأموي وانكمش أصحابه في جحورهم، وأطلت رؤوس الفتنة من مجاثمها تفح حول جسد الدولة الأموية الذي أضحى شلوا وإن كان به ذماء.

وقد هم مروان بن الحكم بالمسير إلى ابن الزبير ومبايعته بالخلافة[3] وبلغ عبيد الله بن زياد ما أزمع عليه مروان فقدم من العراق وقال له: قد استحييت لك من ذلك!. أنت كبير قريش وسيدها تمضي إلى أبي خبيب فتبايعه «يعني ابن الزبير». فقال مروان مستدركا: ما فات شيء بعد. ثم

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٧: ٣٤.
(٢) المصدر نفسه ٧: ٣٥.
(٣) تاريخ الطبري ٧: ٣٥.

اجتمع إليه عدد من أنصار بني أمية، وكانوا قلة لتصدع صفوفهم، بصدد من يختارونه خليفة من البيت الأموي. فأما كلب فقد رشحت حسان بن مالك بن بحدل فمكث يدعو أياما لنفسه ثم أسلمها إلى بني أمية، فقال قوم من كل: هاله اخزاه الله لم ير نفسه ولا قومه لها أهلا.

أما البيت الأموي نفسه فلم يكن مجتمعا على رأي بصدد شخصية الخليفة فقوم أرادوا خالد بن يزيد، وآخرون طالبوا بمروان، وهكذا انقسم أنصار بني أمية تبعا لهذا الإنقسام، في الوقت الذي استشرى فيه الدعاء لابن الزبير حتى وثب أهل العراق بعبيد الله بن زياد فخرج هاربا إلى الشام، فلم يبق من ولاة الأمويين غير حسان بن مالك بن بحدل على الأردن. وقد قام حسان بدور هام في الدعوة لبني أمية، ذلك أنه جمع أهل الأردن وقال لهم: ما شهادتكم على ابن الزبير وقتلى الحرة؟ قالوا نشهد أنه منافق وقتلى الحرة في النار، قال فما شهادتكم على يزيد وقتلاكم في الحرة، قالوا نشهد أنه على الحق وأن قتلانا في الجنة. قال فأنا أشهد لئن كان يزيد وشيعته على حق أنهم اليوم على حق، ولئن كان ابن الزبير وشيعته على باطل، أنهم اليوم عليه. قالوا له صدقت نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك وأطاع ابن الزبير، على أن تجنبنا هذين الغلامين يعنون ابن يزيد عبد الله وخالدا ـ فإنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي[1]. وهكذا نرى فكرة أنصار بني أمية عن شخص الخليفة المنتظر قد أخذت في التبلور بعدما أسالتها حرارة الاختلاف. فقد رأى هؤلاء الأنصار أن شخصية الخليفة التي تتلاءم والأجواء والملابسات المحيطة بهم لا بد أن تكون صاحبة تجارب شمطاء حازمة في غير عنف، رفيقة من غير ضعف تتألف عندها القلوب وتتفق عليها الآراء. ولم يكن لخالد بن يزيد ـ وهو الشاب الغرير ـ هذه التجارب التي تحتاج إليها دقة الحكم للخروج بالدولة من المآزق والمفاجآت، ولهذا اتجهت آراء هؤلاء الأنصار إلى مروان، فهو وحده الذي يستطيع أن يملأ عرش بني أمية بما له من دربة واتزان. ومع

---

(١) المصدر نفسه.

ذلك لم ينقطع حسان بن بحدل - برغم تعرفه هذا الاتجاه - عن الدعوة لابن أخته خالد بن يزيد، وإن كانت دعوته العامة لبني أمية. فقد أرسل إلى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس، وكتب كتابا مماثلا بعث به مع رسول له، فلما كانت الجمعة لم يقرأ الضحاك كتاب حسان، فنهض الرسول وقرأ الرسالة التي معه على الناس، فدبت الفرقة إلى صفوفهم، وقام منهم من يدعو إلى ابن الزبير ويلعن حسانا كما قام منهم من يلعن ابن الزبير ويؤمن على قول حسان. ثم حدث اشتباك عنيف بين الفريقين لم تخف سورته إلا بعد أيام. ويظهر أن الأمويين استمالوا الضحاك إلى جانبهم بمنصب وعدوه به إن هو أعلى كلمتهم، فبعد يومين من سبه يزيد بن معاوية في المسجد - حيث قام إليه شاب من كلب ضربه بالعصا - بعث إلى بني أمية فاعتذر إليهم وقال لهم: إنه لا يريد ما يكرهون وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان، ليسير من الأردن إلى الجابية في بني أمية وأنصارهم، ويسير هو وأنصاره من دمشق، فيجتمع به هناك، ونترك الضحاك مقيما بالجابية لنرى كيف سار الاتجاه بين الأمويين لاختيار خليفتهم.

رأينا كيف ارتأى أهل الأردن أن يكون خليفتهم شيخا مجربا وكانوا يعنون بقولهم مروان بن الحكم، ولما اجتمع بنو أمية في المسجد اتجهوا اتجاه أهل الأردن بعد استعراضهم للشخصيتين المتنافستين: خالد ومروان، وهكذا التمع نجم مروان وأخذ مركزه يتوطد يوماً بعد يوم بالنسبة إلى عرش الأمويين، فلما كانت رسالة الضحاك إلى بني أمية توجهوا إلى الجابية، فوصلوا إليها بعد أن رحل الضحاك عنها إذ جاءه ثور بن معن السلمي فقال: دعوتنا إلى ابن الزبير فبايعناك على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد؟ فقال الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تظهر ما أخفيت وتدعو إلى ابن الزبير، فرجع الضحاك ومن معه من الناس فنزل بمرج راهط في الوقت الذي كان بنو أمية يتشاورون فيه حيث اجتمعت الأهواء المتفرقة على البيعة لمروان، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن

العاص، وكانت هذه البيعة سنة أربع وستين من الهجرة[1]م). وهكذا اتحدت كلمة الأمويين وأنصارهم، وأصبحوا تحت لواء واحد يظلهم بتجربته وينفعهم بحكمته، وسرعان ما نظم مروان صفوف أنصاره ومواليه، وسار إلى مرج راهط وقد عسكر بها الضحاك ومعه ألف فارس، وكان قد استمد النعمان بن بشير وزفر بن الحارث وناتل الجذامي فأمدوه بعدد ضخم من خيلهم ورجالهم، ولما تلاقى الجمعان استحر القتل في جيش الضحاك حتى قتل ومعه ثمانون رجلا من أهل الشام. وقتلت قيس مقتلة عظيمة لم تصب بمثلها في موطن قط، وكان هذا هو السبب العميق الذي دارت عليه رحى الحرب بين قيس وكل من كلب وتغلب فيما بعد.

انتهت موقعت مرج راهط بانتصار مروان أوائل سنة أربع وستين تقريبا، وكان في ظاهرها بين قيس وبني أمية ولكنها في الحقيقة حرب قائمة على العصبية بين المضرية التي تمثلها قيس واليمنية التي تمثلها كلب.

وما أن سرى نبأ هزيمة الضحاك بين الأجناد في الشام حتى هرب النعمان بن بشير من حمص، ولحق ناتل الجذامي بابن الزبير في مكة، وفر زفر بن الحارث من قنسرين متجها إلى قرقيسيا حيث تحصن بها، واجتمعت إليه قيس يتربصون الدوائر بالأمويين والكلبيين ليقتصوا لقتلاهم.

وهكذا استوثق الشام لمروان إلا أن العراق كانت تغلي مراجله بالعداء والثورة، ففيه اجتمع كل خارج على الدولة لبعده عن مركز الخلافة وقربه من حدود الروم مما يسهل على الثائر أمر الفرار إن طلب من الخليفة.

ولم يكتف المتعادون من قيس وبني أمية وأنصارهم من كلب بالسيف حكما، بل راحوا يشعلون نارا جديدة قوامها اللفظ والوزن لتحرق الأحساب والأنجاد. فهذا العداء القائم على أساس من العصبية القبلية القديمة، كان محتاجا إلى الشعر ليعلن به كل فريق عن نفسه، ويغض من شأن عدوه، وقد ابتدأت هذه الأهاجي تأخذ طريقها بعد وقعة مرج راهط، وكان شعراء قيس

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٧.

ومن تابعهم ممن يؤلون ابن الزبير أوفر عددا وأعلى كعبا من شعراء بني أمية في مبدأ الأمر. فلما استوثق الحكم لبني أمية استطاعوا أن يستميلوا بوسائلهم البراقة عددا من الشعراء إما رغبة وإما رهبة، وكان زفر بن الحارث نفسه - وهو من زعماء القيسية - شاعرا مطبوعا وقد ابتدأ حرب الشعر بعد وقعة مرج راهط حين جدت خيل مروان تطلبه في أثناء فراره إلى قرقيسيا وكان معه شابان من بني سليم طلبا منه النجاة بنفسه على حساب حياتها فقال:

اريني سلاحي لا أبا لك إنني	أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه	مقيد دمي أو قاطع من لسانيا[1]
ففي العيش منجاة وفي الأرض مهرب	إذا نحن رفعنا لهن المثانيا[2]
فلا تحسبوني أن تغيبت غافلا	ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا[3]
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هي ماهيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط	لمروان صدعا بيننا متنائيا
أمن بعد عمرو وابن معن تتابعا	ومقتل همام أمني الأمانيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه	فراري وتركي صاحبي ورائيا
عشية أعدو بالقرآن فلا أرى	من الناس إلا من على ولاليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته	بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا	وتثأر من نسوان كلب نسائيا
الا ليت شعري هل تصيبن غارتي	تنوخا وحيي طيىء من شفائيا[4]

وهكذا انطلق الزعيم القيسي يقذف الحمم من أفواه القوافي وقد اجتمع شيطان العصبية القبلية بشيطان شعره فتعاونا على انتزاع ما تكنه نفس هذا

---

(١) أقاد القاتل بالقتيل أي قتله به.
(٢) أصل المثنى الوتر الثاني في العود، والمثاني القرآن أو ما ثني به مرة بعد مرة، وهي هنا بمعنى الحداء.
(٣) الدمن بعر الماشية.
(٤) تاريخ الطبري ٧: ٤١ والكامل لابن الأثير ٤: ٧٥ وتنحط بمعنى تزفر زفيرا أو هو صوت الخيل من الأعياء.

القيسي من ألم عبقري بسبب قتلى قبيلته، وحقد مروع مخوف يتربص بهؤلاء المتصرين من بني أمية ومن والاها من القبائل اليمنية.

وكان هذا الشعر بمثابة إعلان حرب غير نظامية على هؤلاء الأعداء، وسرعان ما جاءه الجواب سخرية وتحديا من الفريق الآخر كما يتضح في قول جواس بن قعطل:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... على زفر داء من الداء باقيا
مقيما ثوى بين الضلوع محله ... وبين الحشا أعيى الطبيب المداويا
تبكي على قتلى سليم وعامر ... وذبيان معذورا وتبكي البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى ... سيوف جناب والطوال المذاكيا[1]
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة ... إذا شرعوا نحو الطعان العواليا[2]

لم تهدأ الدولة الأموية إذن وزفر بن الحارث الزعيم القيسي يتهددها في كل حين بإغاراته المتكررة على أنصارها من كلب، على أنها أمنت جانب عمير بن الحباب على توجس إذ أنه بايع مروان وفي نفسه ما فيها بسبب قتلى قيس بمرج راهط. ثم لم يلبث عمير أن سار على طاعة مروان مع عبيد الله بن زياد لمقاتلة زفر، فمال مع ابراهيم بن الأشتر، وأقبل حتى دخل قرقيسيا على زفر فأقام معه وشاركه في قضاء ثارات قيس، ثم لم يلبث أن مل تضييق عبد الملك بن مروان عليه وحصاره له فاستأمن إليه فأمنه، ولكنه غدر به مرة أخرى وعاد إلى الجزيرة، حيث اجتمعت إليه قيس واخذوا يعاودون كراتهم على كلب واليمانية بمن قتلوا من قيس. وكان مع زفر وعمير قوم من تغلب يقاتلون معهما ويدلونهما على المسالك والفجاج لخبرتهم بهذه الأرض. وقد دارت أغلب هذه الأيام في منطقة السماوة حيث تنزل كلب، واشتدت الحرب حتي اضطرت قيس الكلبيين إلى الهجرة مؤقتا إلى غور فلسطين.

من هذا يتبين لنا أن تغلب لم تتخذ كعادتها موقفا حاسما من القتال

---

(١) المذاكي جمع مذكية وهي من الخيل التامة النضج.

(٢) تاريخ الطبري ٧: ٤٢ والكامل لابن الأثير ٤: ٧٥.

الدائر بين قيس وكلب، فإنها رأت ـ وهي القبيلة النصرانية ـ أن تدخلها بين فريقين من المسلمين لن يكون إلا على حسابها، ولكن سؤالا يعترض سبيلنا في هذا الموضوع وهو كيف مالت تغلب إلى صف الأمويين، ثم هي تنكص عن تأييد أنصارهم من كلب ضد القيسيين؟ يجب ألا ننسى في هذا أن تغلب قبيلة شمالية لم تمح نصرانيتها العصبية القبلية القديمة، كما لم يمح الإسلام هذه العصبية في القبائل التي انضوت تحت لوائه؛ فلهذا وافقت تغلب هواها حين كفت يدها عن مساعدة الكلبيين، ولكن مساعدتها لبني أمية دعت إليها نصرانيتها لا عصبيتها، والسياسة لا العاطفة، كما أن مساعدة قيس لابن الزبير دعت إليها عصبيتها لا دينها، فلما كان موقف تغلب من حرب قيس وكلب وجدت حرجا كبيرا في تحديد سياستها فكلب عدوتها ولكنها في الوقت نفسه حليفة الأمويين، وقيس من عصبيتها ولكنها في الوقت ذاته عدوة الأمويين، لهذا ترددت في اختيار أي الفريقين، وتجاذبتها العوامل السياسية والأهواء العاطفية حتى أخرجها استفزاز قيس لها عما كانت فيه من حرج حيال الدولة الأموية التي أمنت جانبها من المسلمين الذين أخذوا يطبقون عهد عمر لتغلب تطبيقا شاذا فيه كثير من الزراية بها والاستهتار بقوتها إلى حد تسخيرها. فكان أصحاب عمير بن الحباب يستأوون جواري تغلب ويسخرون مشايخهم من النصارى، فآلم ذلك التغلبيين وأوجعهم، ولكنهم صبروا على كره منهم حتى لا يساء فهم موقف القبيلة من الناحية الدينية. غير أن حبال الصبر لم تمد طويلا، فابتدأ الصراع بين قيس وتغلب عنيفا، إلا أن الروايات التاريخية التي بين أيدينا تذكر لأساس هذا الصراع أسبابا ساذجة يمكن أن تكون دواعي حرب جاهلية ولكن يبعد أن تكون دواعي حرب في العصر الأموي. فمع أن أساس هذا الصراع قائم على النزعة القبلية القديمة إلا أن هذه النزعة اكتسبت عمقا سياسيا لم يكن موجودا في الجاهلية. تقول هذه الروايات أنه لما ألح عمير بن الحباب بالغارات على كلب فنزحت عن مواطنها انصرفت قيس في بعض ما كانت تنصرف من غزو كلب وهم مع عمير، فنزلوا على الخابور بين منازل بني تغلب، فأخذ غلام من بني الحريش ـ وهم أصحاب عمير ـ أعنزا لامرأة من تميم متزوجة في تغلب يقال لها أم دويل، وكان دويل هذا من

فرسان بني تغلب المشهورين، فلما أتى أمه أخبرته بما لقيت فذهب في جماعة من تغلب إلى عمير فشكوا إليه فلم يشكهم وقال: معرة الجند! ولما رأى أصحابه أنه لم يقرعهم تمادوا في عدوانهم، ووثبوا على بقية أعنز أم دويل فلم يبقوا منها شيئا، عند ذلك استنفر دويل جماعة من قومه وأغاروا على بني الحريش، واستاقوا ذودا لامرأة منهم يقال لها أم الهيثم[1] وفي ذلك يقول الأخطل مدافعا ومهاجما:

فإن تسألونا بالحريش فإننا ... منينا بنوك منكم وفجور
غداة تحامتنا الحريش كأنها ... كلاب بدت أنيابها لهرير
وجاءوا بجمع ناصري أم هيثم ... فما رجعوا من ذودها ببعير
إذا ذكرت أنيابها أم هيثم ... رغت جيئل مخطومة بضفير[2]

فلما بلغ قيسا أغارت على بني تغلب بإزاء الخابور فقتلوا منهم ثلاثة نفر واستاقوا خمسة وثلاثين بعيرا، فخرجت جماعة من تغلب، فأتوا زفر بن الحارث وذكروا له القرابة والجوار وهم بقرقيسيا، وقالوا اتتنا برحالنا وورد علينا نعمنا، فقال أما النعم فنردها عليكم، أو ما قدرنا لكم عليه، ونكمل لكم نعمكم من نعمنا إن لم نصبها كلها، وندى لكم القتلى، قالوا له: فدع لنا الخابور ورحل قيسا عنه، فإن هذه الحروب لن تطفأ ما داموا مجاورينا، فأبى ذلك زفر وأبوا هم أن يرضوا إلا بذلك، فناشدهم الله وألح عليهم، فقال لهم رجل من النمر كان معهم، والله ما يسرني أنه وقاني حرب قيس كلب أبقع تركته في غنمي اليوم، وألح عليهم زفر يطلب إليهم ويناشدهم فأبوا، فقال عمير: لا عليك لا تكثر، فوالله إني لأرى عيون قوم ما يريدون إلا محاربتك.

نحن إذن أمام زعيمين من زعماء قيس قد اختلفت شخصياتها وتباينت أخلاقهما. الأول عمير بن الحباب وهو كما تبدى لنا جافي الطبع، خشن السياسة، أعرابي مسلم يرى في اعتداء جنوده على جيرته من النصارى معرة

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٤: ٤.

(٢) الديوان: ٣٦ والنوك الحمق، والذود مجموعة من الابل من ثلاثة إلى عشرة، أنياب جمع ناب وهو الجمل المسن، والجيئل الضبع، والمخطوم: المزموم، والضفير: حبل من ليف أو جلد.

تلحق بهؤلاء المعتدي عليهم ولا شيء غير ذلك، وهو لا يحاول من جانبه ترضية تغلب وهو الذي زاحمها منازلها واستأوى جواريها وسخر مشايخها، وليس هذا الخلق الجاف بغريب على شخص لم يقم على مذهبه السياسي طويلا ولم يحترم كلمته مع خليفتين مرتين كما رأينا، وليس مرجع هذا إلى ضعف في شخصيته وإنما يرجع إلى احترامه للقوة. فهو لم يبايع مروان إلا بعد أن ظهر عليه، ولم يغدر به إلا حينما رأى أنه مع زفر يكونان قوة قيسية تستطيع الانتقام من الأمويين وأنصارهم، وكان هذا شأنه مع عبد الملك. إذن فقد كانت تغلب في نظره ضعفاً إلى جانب قوته، ولهذا احتقرها ولم يسع إلى صلحها والكف عن أذاها.

والثاني زفر بن الحارث وقد طالعنا حديثه مع وفد تغلب فرأينا منه سياسة وحكمة وسراحة وبذلا، وجانبا يلين ويشتد، ولم نلمس منه تعاليا على تغلب، بل لمسنا منه صدق الرغبة في تسوية الخلاف تسوية سلمية دون حاجة لأن يقيمه السيف. ويؤكد هذا لنا صاحب الأغاني بقوله: كان كريما مجمعا لا يحب الفرقة.

وقد كان من الواجب على تغلب بعد ذلك وهي القلة النصرانية أن تقبل تسوية الخلاف في هدوء، ولو فعلت ما كان هناك أدنى شك في أنها تعمل لحسابها، ولكن اعتزامها القتال ضد قيس ـ وهو ما أدركه عمير ابن الحباب ـ يدفعني إلى الاعتقاد بأنها كانت مدفوعة من الأمويين إلى هذه الحرب، أو على الأقل أنها نالت موافقتهم وتشجيعهم، فكانت هذه الحرب لمصلحة الفريقين، فتغلب قد ضاقت بمزاحمة قيس لها على منازلها وما استجلب ذلك من إثارة القلاقل والمناوشات، كما أنها ضاقت بهؤلاء الجنود المسلمين الذين يقطعون أرضها جيئة وذهابا، طالبين زادها مسخرين أبناءها. والأمويون قد شغلهم هذا الاضطراب الذي تسببه قيس لهم، مما يجعل الحكم غير مستقر في أيديهم، فمن مصلحتهم إذن شغل قيس بحرب تغلب فتتحول بذلك سيوفها عن محاربتهم دون أن يتكلفوا جهدا في هذه الحرب. وأظن أن الأمويين ما كانوا يغضون الطرف عن هذه الحرب لولا أنها في جانبهم

ولمصلحتهم، بل لقد اشترك مع تغلب جند من اليمن بعد أن جاهر التغلبيون بعدائهم لابن الزبير وتأييدهم للأمويين.

ولهذه الأسباب جميعا ابتدأت حرب قيس وتغلب، ابتدأت بأن جمعت تغلب جمعا أغار على ما قرب قرقيسيا من قرى القيسية، فلقيهم عمير بن الحباب وهزمهم شر هزيمة، وكان القمري الذي تكلم عند زفر أول قتيل، فأعظم ذلك الحيان جميعا، وكرهوا الحرب وشماتة العدو، وقد صور لنا ذلك القطامي ـ وهو من تغلب ـ في قصيدته التي استهلها بمخاطبة ابنة زفر واسمها ضباع يقول:

قفي قبل التفرق يا ضباعا ... ولا يك موقف منك الوداعا[1]
قفي فادي أسيرك أن قومي ... وقومك لا أرى لهم اجتماعا
وكيف تجامع مع ما استحلا ... من الحرم العظام وما أضاعا
ألم يحزنك أن حبال قيس ... وتغلب قد تباينت انقطاعا
يطيعون الغواة وكان شرا ... لمؤتمر الغواية أن يطاعا
ألم يحزنك أن ابني نزار ... أسالا من دمائهما التلاعا[2]
وصارا ما تغبهما أمور ... تزيد سنا حريقهما ارتفاعا
ويوم تلاقت الفئتان ضربا ... وطعنا يطح البطل الشجاعا
ترى منه صدور الخيل زورا ... كأن بها نحازا أو دكاعا[3]
وظلت تعبط الأيدي كلوما ... تمج عروقها علقا متاعا[4]
كأن الناس كلهم لأم ... ونحن لعلة علت ارتفاعا[5]
فكل قبيلة نظروا إلينا ... وحلوا بينا كرهوا الوقاعا[6]

---

(١) القطامي بالفتح والضم وأصله الصقر لقب عمير بن شييم، وضباع أصلها ضباعة وهي بنت زفر بن الحارث.
(٢) ابنا نزار مضر وربيعة والتلاع جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض.
(٣) النحاز داء في رئة الإبل أو الخيل تسعل منه، والدكاع السعال الذي يأخذ الإبل أو الخيل.
(٤) العلق يعني به الدم، والمتاع كل ما ينتفع به.
(٥) بنو العلات أن يكونوا أخوة لأب ولأمهات شتى.
(٦) الوقاع جمع وقيعة وهي الحرب.

فهم يتبينون سنا سيوف	شهرناهن أياما تباعا
ثبتنا ما من الحيين إلا	يظل نرى لكوكبه شعاعا
وكنا كالحريق أصاب غابا	فيخبو ساعة ويهب ساعا
أمور لو تلافاها حليم	إذا لنهى وهيب ما استطاعا
ولكن الأديم إذا تفرى	بلى وتعينا غلب الصناعا[1]
كذاك وما رأيت الناس إلا	إلى ما جر غاويهم سراعا

بهذه الروح الجانحة إلى السلم المزورة عن الحرب كان جماعة من تغلب، وكان القطامي اللسان المعبر عنها، وكانت هناك جماعة أخرى منهم دائمة الثورة، تصيح بالحرب وكان الأخطل لسانها، وهذا لا ينفي أن الجماعة المسالمة قد اشتركت في الحرب بالرغم عنها، لأن هذا هو قانون القبيلة المقدس، ولأن تغلب كانت في موقف الدفاع عن نفسها لقلة عددها وكثرة عدوها. ولعل الأخطل يعبر لنا عن رأي جماعته الداعية إلى الحرب بقوله:

ونعم أخو الكريهة حين يلقى	إذا نزت النفوس إلى التراقي
فلا تسترسلوا لدجاء صلح	فإن الحرب شامذة النطاق[2]
قليلا كي ولا حتى تروها	مشمرة على قدم وساق

وقد سعى واحد من الجماعة المسالمة وهو شريف من عيون تغلب اسمه إياس بن الخراز إلى قرقيسيا ليناظر زفر فيما كان بينهم، فشد عليه يزيد بن يحزن فقتله، فكان ضحية للحرب التي كرهها. وتذمم زفر من ذلك فأرسل إلى الأمير ابن قرشة التغلبي فقال له هل لك أن تسود بني نزار فتقبل مني الدية عن ابن عمك، فأجابه إلى ذلك، وكان قرشة من أشراف بني تغلب، فتلافى زفر ما بين الحيين وأصلح بينهم وفي الصدور ما فيها، ثم أن عميرا وفد على المصعب بن الزبير وأعلمه أنه قد أولج قضاعة بمدائن الشام - يقصد الكلبيين - وأنه لم يبق إلا حي من ربيعة أكثرهم نصارى وكان يعني بني

---

(١) تفري أي تشقق والتمين أن يكون في الجلد دوائر رقيقة من القدم، والصناع: الحاذق.
(٢) الدجاء من المداجاة ويعني به الصلح الكاذب والشامذة المشمرة.

تغلب، وسأله أن يوليه عليهم فقال مصعب: اكتب إلى زفر فإن هو أراد ذلك وإلا ولاك. فلما قدم عمير على زفر ذكر له ما كان بينه وبين مصعب، فشق على زفر ذلك وكره أن يليهم عمير فيحيف بهم، ويكون ذلك داعية إلى منافرته، فوجه إلى تغلب قوما وأمرهم أن يترفقوا بهم، فأتوا أخلاطا من التغلبيين عند الخابور فأعلموهم الذي وجهوا به، فأبوا عليهم، فانصرفوا إلى زفر فردهم، وأعلمهم أن مصعبا كتب إليه بذلك ولا يجد بدا من أخذ ذلك منهم أو محاربتهم، فقتل التغلبيون بعض الرسل فاشتد ذلك على زفر وكره استفساد بني تغلب.

إذن لقد جدت في الأمر عوامل لم تكن موجودة فعمير يريد أن يتقلد أمر التغلبيين بأمر من مصعب بن الزبير الذي شرط الولاية بقبول زفر بن الحارث، وزفر يعلم جفاء طبع عمير وعنف سياسته فهو يخشى على التغلبيين منه، ولذلك بعث برسله إلى تغلب ليأخذوا منها ما تدفعه كصدقة، وأمرهم أن يترفقوا بها، وهذا يؤكد لنا حسن نية زفر بالنسبة لتغلب وأنه ما زال يعدها كباقي أهل العراق من أعداء بني أمية. فلما أبى التغلبيون إجابة رسل زفر هددهم بالحرب بصفته ممثلا للحزب الزبيري وأن تغلب خارجة عن طاعة هذا الحزب الذي ما زال العراق يدين له بالطاعة والولاء، ويتقرب الأخطل بشذوذ قبيلته عند الأمويين فيقول:

ولما تبينا ضلالة مصعب ... فتحنا لأهل الشام بابا من النصر
فأصبح ما بين العراق ومنبج ... لتغلب تردى بالردينية السمر[1]

وعلى هذا ابتدأت الحرب الفعلية بين الفريقين، حرب بين قيس ممثلة للحزب الزبيري، وتغلب وهي ممثلة الحزب الأموي، فكانت الوقعة الأولى من جانب قيس وقعة تأديبية بالنسبة لتغلب، وكان قائد قيس فيها عمير بن الحباب نفسه وقائد تغلب عبد الله بن شريح، وقد دارت هذه المعركة بالقرب من ماكسين على شاطىء الخابور واستمر القتل في تغلب حتى فقدت خمسمائة من

---

(١) ديوان الأخطل: ١٣٤ ويردي الفرس الأرض بحوافره أي يرجمها.

أبنائها وفيهم قائدهم، وفر الباقون مجللين بنار الهزيمة، وما زال عمير يصيح بقيس: ويلكم لا تستبقوا أحدا! ويقال أن رجلا من بني قشير اسمه النذار صاح في التغلبيين قائلا: أنا جار لكل حامل أتتني فهي آمنة، فأتته الحبالى وكانت المرأة تشد على بطنها الجفنة من تحت ثوبها تشبيها بالحبلى بما جعل لهن، فلما اجتمعن له بقر بطونهن، ويفتخر بذلك ابن صفار المحاربي إذ يقول:

بقرنا منكمو الفي بقير   فلم نترك لحاملة جنينا

ويقول الأخطل في هذه الحادثة:

فليت الحرب قد وطئت قشيرا   سنابكها وقد سطع الغبار
فنجزيهم ببغيهم علينا   بنى لبني بما فعل النذار

وقد استعظم زفر فعل صاحبه عمير وعنفه على ذلك بقصيدة يقول فيها:

ألا من مبلغ عني عميرا   رسالة عاتب وعليه زار
أنترك حي ذي يمن وكلبا   ونجعل جدنا بك في نزار
كمعتمد على إحدى يديه   فخانته بوهن وانكسار

وكأني بزفر هنا يأمل في اتحاد قيس وتغلب ضد كلب واليمنية، ويستنكر الاعتداء العنيف على تغلب وهي من العصبية المضرية التي يعمل لها ويقاتل الأمويين ومن والاهم من أجلها، ويظهر أن عميرا لم يكن يفهم حقيقة العلاقة بين قيس وتغلب كما يفهمها زفر، فقد كان يحارب التغلبيين محاربة الكلبيين ولم يكن زفر يرمي إلى شيء من هذا حتى ذلك الوقت. وقد أحسن زفر معاملة أسرى تغلب وأطلق سراح القطامي الشاعر وكان قد أسر في ذلك اليوم فقال القطامي يمدحه:

من مبلغ زفر القيسي مدحته   من القطامي قولا غير افناد
إني وإن كان قومي ليس بينهم   وبين قومك إلا ضربة الهادي

مثن عليك بما استبقيت معرفتي وقد تعرض مني مقتل بادي[1]

ولم تنم تغلب عن ثأرها، وأدركت قيس ذلك، فاستعد الجانبان لحرب جديدة وأرسلت تغلب إلى مهاجريها وهم بأذربيجان فأتاهم شعيث ابن مليل في ألفي فارس، واستنصر عمير تميما وأسدا فلم يأته منهم أحد فقال في ذلك:

أيا أخوينا من تميم هديتما ومن أسد هل تسمعان المناديا
ألم تعلما منذ جاء بكر بن وائل وتغلب ألفافا تهز العواليا
إلى قومكم قد تعلمون مكانهم وهم قرب أدنى حاضرين وباديا[2]

وكان قد حضر من وجوه بكر بن وائل جمع كثير فلما أتى عميرا جمع بني تغلب قال يستبطىء أصحابه:

أناديهم وقد خذلت كلاب وحولي من ربيعة كالجبال
أقاتلهم بحي بني سليم ويعصر كالمصاعيب النهال[3]

وهكذا التقى الجمعان غير متكافئين على الثرثار فانهزمت قيس وقتل التغلبيون منها مقتلة عظيمة وثأروا لنسائهم يوم ماكسين إذ بقروا بطون ثلاثين امرأة من بني سليم، وكان السلميون يكونون أغلب جيش عمير كما فهمنا من البيتين الأخيرين، وهو نفسه من سليم كما يذكر صاحب معجم الشعراء[4].

وأخذ الأخطل يدل بهذا الانتصار الذي أحرزه قومه كما يتضح في قوله:

ألا من مبلغ قيسا رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق
أصبنا نسوة منكم جهارا بلا مهر يعد ولا سياق
تظل جيادنا متمطرات مع الجنب المعادل والمشاق
ملأنا جانب الثرثار منهم وجهزنا أميمة لانطلاق

(١) ديوان القطامي: ٨٤ والأفناد: الكذب، والهادي العنق.
(٢) الأغاني: ١٢: ٢٠٥.
(٣) الأغاني ١٢: ٢٠٦ ويعصر من قيس عيلان، والمصاعيب: الفحول، والنهال: المرتوية.
(٤) معجم الشعراء: ١٢٤.

ضربناهم على المكروه حتى حدرناهم إلى حدث الترقاق[1]

إذن لقد أصبحت الحرب سجالا بين الفريقين، كل منهما يريد أن يدرك ثأره من الآخر، ويمحو عار الهزيمة التي لحقته، وكانت الوقائع مرة لفريق وأخرى عليه، أو هي كما عبر عنها الشاعر الجاهلي دريد بن الصمة إذ يقول:

يغار علينا واترين فيشتفى بنا أن أصبنا أو نغير على وتر
كذاك قسمنا الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر

لهذا لم يكن من العجيب استمرار الحرب مدى أربع سنوات فقد اشتعلت سنة تسع وستين من الهجرة وانتهت سنة ثلاث وسبعين تقريبا وكان من الممكن أن تمتد أكثر من ذلك لولا أن عبد الملك بن مروان صالح قيسا وأصهر إليها، ولولا أن فتنة عبد الله بن الزبير قد انتهت في تلك السنة إذ قتل فيها.

ولم تنم قيس عن ثأرها بل راح عمير يجمع الجموع مذكرا بالهزيمة عازما على الثأر لقتلاه ويتضح ذلك في قوله:

فدى لفوارس الثرثار قومي وما جمعت من أهل ومال
أبعد فوارس الثرثار أرجو ثراء الماء أو عدد الرجال[2]

ولما اكتمل استعداد قيس تجمعت وتحفزت وعليها عمير بن الحباب، ولأول مرة يشترك زفر في القتال ضد تغلب، ولا عجب فقد خلفت في قبيلته ثأراً لا بد من إدراكه، والتقى الجمعان على الثرثار مرة أخرى، وكان على تغلب شعيث بن مليل، واشتد القتال بينهما حتى إنهزم بنو عامر وكانوا على مجنبة قيس ولكن السلميين صبروا وثبتوا في وجه تغلب حتى ابتدأت كفتهم ترجح عليها وقطعت رجل شعيث قائد تغلب فجعل يقاتل وهو يقول:

---

(١) ديوان الأخطل: ٣١ والسياق: الصداق، ومتمطرات، مسرعات، والجنب: نوع من العدو، والمعادل ما بين السهل والشديد، والمشاق: السريع.

(٢) الأغاني ١٢: ٢٠٦.

قــد عـلمت قيس ونحـن نعـلم   أن الفتى يفتــك وهــو أجـذم[1]

ثم قتل شعيث فنزل أصحابه وعقروا دوابهم وقاتلوا حتى قتلوا، وبهذا أدركت قيس ثأرها مخلفة في تغلب وتراً إذ قتلت قائدها دون أن تفقد من يماثله وفي هذا يقول جرير مخاطباً الأخطل:

لقيتم بــالجـزيـرة حيــل قيس   فقلتــم «مــار سرجس» لا قتــالا
فــلا خيل لكم صـبرت لخيــل   ولا أغـنــت رجــالــكم رجــالا
وأسلمتم شعيـث بني مليـل   أصــاب السيف عــاتقــه فــمالا

ويظهر أن التغلبيين قد فقدوا أكثر مما ينبغي في هذه المعارك فكفوا عن إغاراتهم، إلا أن قيساً رابها هذا الهدوء من جانب تغلب فلم تنم عنها وأخذ عمير بن الحبـاب يغير عليها المرة تلو المرة، وأبرز هذه الأيام التي هزمت فيها تغلب في أثناء استكانتها يوم فدين الذي يقول فيه ابن صفار المحاربي:

لـو تسأل الأرض الفضـاء عليكم   شهـد الفـدين بهلككم والصور[2]

ويوم السكير الذي يقول فيه عمير بن الحباب حين فر من المعركة عمير بن جندل وهو من أشهر فرسان بني تغلب:

وأفلتنــا يـوم السكـيـر ابن جنـدل   عـلى سابح عـوج اللبـان مثابـر
ونحن كررنا الخيل قدمـاً شوازبـا   دقـاق الهوادي داميـات الـدوائـر[3]

ومن هذه الأيام أيضاً يوم المعارك ويوم الحضر وقد كانا شديدين على تغلب يقول ابن صقار المحاربي:

---

(١) المصدر نفسه ١٢ : ٢٠٧ وفيه شعيب لا شعيث كما في نقائض جرير والأخطل وفي ابن الأثير «ابن مليك» ٤: ٤ .

(٢) الكامل ٤: والصور قرية من القدين الذي يقع على شاطىء نهر الخابور.

(٣) المصدر نفسه، والخيل العوج، المجنبة، والشوازب: الضوامر والهوادي: الأعناق، ودوائر الخيل كما يقول أبو عبيدة ثماني عشرة دائرة: وسط الجبهة، وتحت الأنف وتحت اللبد، وفي عرض الزور.. الخ.

ولقـد تـركنـا بـالمعـارك منكم والحضر والـثرثـار أجسـاداً جثـاً[1]

ثم كان يوم لبى فتناصفوا، فقيس تقول كان الفضل لنا وتغلب تقول كان الفضل لنا. وقد ساء تغلب هذا الهجوم المتكرر من جانب قيس وهذا الانهزام المر على يديها، فحشدت جموعها وسارت إلى الشرعبية حيث التقت بعمير في قيس، فدار القتال عنيفاً بين الفريقين، وانتهى بانتصار تغلب وظهورها على قيس. ولم تكد تخمد نار هذه المعركة حتى جمعت قيس جموعها وسارت إلى البليخ وهو نهر بين حران والرقة حيث التقت بجموع تغلب فسقتها كأس الهزيمة المرة وأكثرت القتل فيها وبقرت بطون نسائها كما فعلت يوم ماكسين. وساء ذلك التغلبيين فعقدوا خناصرهم على محاربة قيس بحاضرهم وباديهم فجمعوا كل قواتهم وجعلوا النساء وراءهم وأمروا عليهم ابن هوبر، واشترك زفر وعمير في قيادة قيس، ولما التقى الجمعان عند الحشاك وهو تل قريب من الشرعبية اشتد القتال بينهما يومين، فلما كان اليوم الثالث تعاقد التغلبيون ألا يفروا، فلما رأى عمير جدهم وأن نساءهم معهم دلالة على الاستقتال قال لقيس: يا قوم أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستقتلون، فإذا اطمأنوا وساروا إلى سرحهم وجهنا إلى كل قوم منهم من يغير عليهم، فقال له عبدالعزيز الباهلي: قتلت فرسان قيس أمس وأول أمس ثم جبنت، فغضب عمير ونزل إلى ساحة المعركة وجعل يقاتل وهو يقول:

أنـا عـمـير وأبـو المـغـلس قد أحبس القوم بضنك فاحبس

وانهزم زفر هزيمة كادت تطيح برأسه إلا أنه نجا ولحق بقرقيسيا، وذلك أنه بلغه أن عبدالملك بن مروان قد عزم على الحركة إليه بقرقيسيا فبادر للتأهب، وقيل أنه ادعى ذلك حين فر اعتذاراً. وانهزمت قيس هزيمة منكرة وركبت تغلب ومن معها أكتافهم، وهم يقولون أما تعلمون أن تغلب تغلب، وشد على عمير جميل بن قيس فقتله، وقيل بل تغاوي على عمير غلامان من بني تغلب فرمياه بالحجارة وقد أعيياه فأثخناه وكر عليه ابن هوبر فقتله، وينكر

---

(١) الكامل ٤: جثا أي مجموعة كالتراب واحدتها جثوة.

الرواية الأخيرة أحد الشعراء إذ يقول:

وإن عميراً يوم لاقته تغلب قتيل جميل لا قتيل ابن هوبر[1]

وقد بعثت تغلب برأس عمير بن الحباب إلى عبد الملك بن مروان بدمشق فأعطى الوفد وكساهم، وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من أن التغلبيين كانوا يحاربون لحساب بني أمية. وعلى أية حال فإن قيساً قد أفجعها مصابها وبخعها انكسارها، فأقبل تميم بن الحباب أخو عمير علي زفر بن الحارث، وسأله الثأر لعمير فرجع زفر عن ذلك، فخرج تميم وقد تابعه جماعة من قيس متوجهين نحو بني تغلب فلقيهم الهذيل بن زفر فقال: أين تريدون؟ فأخبروه بما كان من أبيه فقال: أمهلوني ألق الشيخ، فأقاموا، ومضى الهذيل فأتى أباه فقال ما صنعت. والله لئن ظفرت بهم تغلب، إن ذلك لعار عليك ولئن ظفروا بتغلب وقد خذلتهم، أن ذلك لأشد قال زفر فاحبس على القوم وقام في أصحابه فحرضهم على القتال، ثم شخص واستخلف على قرقيسيا أخاه أوس بن الحارث، وعزم على أن يغير على بني تغلب ويغزوهم، فوجه يزيد بن حمران في خيل إلى بني فدوكس، وهم بطن من تغلب فقتل رجالهم وسبى نساءهم واستباح أموالهم، وبعث الهذيل ابنه إلى كعب بن زهير فقتل فيهم قتلاً ذريعاً وبعث زفر أيضاً مسلم بن أبي ربيعة إلى ناحية أخرى فأسرف في القتل، ثم قصد زفر نفسه بني تغلب واليمن وقد اجتمعوا بالعتيق من أرض الموصل، فارتحلوا يريدون عبور دجلة فلحقهم زفر بالكحيل، وهو نهر أسفل الموصل فاقتتلوا قتالاً شديداً استغرق يومين، وسقط من التغلبيين عدد كبير من القتلى وعدد أكبر من الغرقي وفي ذلك يقول زفر مفاخراً ورائياً عمير بن الحباب:

ولما أن نعي الناعي عميراً حسبت سماءهم دهيت بليل
وكنت قبيلها يا أم عمرو أرجل لمتي وأجر ذيلي

---

(١) في معجم الشعراء أن عميرا قتل يوم سنجار أو يوم البليخ: ٧٤، وصححته ما ورد في أنساب الأشراف والأغاني ١٢: ١٩٨.

فلو نبش المقابر عن عمير فيخبر من بلاء أبي الهذيل
غداة يقارع الأبطال حتى جرى منهم دماً مرج الكحيل[1]
قبيل ينهدون إلى قبيل تساقي الموت كيلاً بعد كيل[2]

وبهذا الانتصار أيضاً يعير جرير الأخطل بقوله:

حملت عليك حماة قيس خيلها شعثاً عوابس تحمل الأبطال
ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكر عليكم ورجالاً
زفر الرئيس أبو الهذيل أبادكم فسبى النساء وأحرز الأموالا
قال الأخيطل إذ رأى راياتهم يا «مار سرجس» لا نريد قتالا
هلا سألت غثاء دجلة عنكم والخامعات تجمع الأوصالا[3]

وبالرغم من اثخان قيس في تغلب فإن جرحها لم يلتئم لقتل عمير، وقد كانت المعركة التالية والأخيرة في هذه الحرب من أشد المعارك وأعنفها، فهي تصلح حقيقة لأن تكون ختاماً مبكياً لهذه المأساة الدامية أو الملحمة كما يعبر عنها الأخطل بقوله:

ولم أر ملحمة مثلها أقف لي أخبرك أخبارها
أمر على ثعلب جائع وأشبع للذئب أن زارها
تركنا البيوت لأعدائنا وعون النساء وأبكارها[4]

وكان للشعر الدور الرئيسي في إثارة هذه المعركة وكان يحمل لواءه من بني تغلب شاعرهم الأكبر ولسان جماعتهم الداعية للحرب: الأخطل. فقد راح ينثر في المجامع على عادته فخر قبيلته بقتل عمير ويبتدع الصور التي تمثل بشاعة مقتل هذا القائد القيسي كما يتضح في قصيدته التي يرد بها على ابن

---

(١) اللمة ما جاور الأذن من الشعر، والمرج: الفضاء أو الأرض ذات الكلأ.
(٢) الأغاني: ١٢: ١٩٩.
(٣) انظر القصيدة في الأغاني: ١٢: ١٩٨، ونقائض جرير الأخطل، والغثاء: النفايات التي تخالط السيل، والخامعات جمع خامعة وهي الضباع.
(٤) ديوان الأخطل: ٣٠١ .والعون مفردها عوان وهي المرأة التي سبق لها الزواج.

صفار المحاربي إذ يقول:

لحا الله قيساً حين فرت رجالها عن النصف السوداء والكاعب البكر
وظلت تنادي بالثدي نساؤهم طوالع بالعلياء مائلة الخمر
وإن يك قد قاد القنابل مرة عمير فقد أضحى بداوية قفر
تنقل سباع الشرعبية حوله وبوضا وما كانوا أجنوه في قبر
صريعاً بأسياف حداد وطعنة تمج على متن السنان دم الصدر
بني عامر لم تثأروا بأخيكمو ولكن رضيتم باللقاح وبالجزر
إذا عطفت وسط البيوت احتلبتمو له لبناً محضاً أمر من الصبر[1]

وكذلك في قوله:

أمعشر قيس لم يمتع أخوكم عمير بأكفان ولا بطهور
تدل عليه الضبع ريح تضوعت بلا نفح كافور ولا بعبير
وقتلى بني رعل كأن بطونها على جلهة الوادي بطون حمير[2]

وكان هذا الشعر دعوة جديدة إلى الحرب أخذت تتمكن من قلوب القيسيين حتى فروتها حين دخل الأخطل على عبد الملك بن مروان وعنده الجحاف بن حكيم السلمي فقال الأخطل:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف أن تصطك يوماً فتصطدم عليك أواذي البحور الزواخر
تكن مثل أقذاء الحباب الذي جرى به الماء أو جاري الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعراً لدى السورة العليا على كل شاعر
يصول بمجر ليس يحصى عديده ويسدر منه ساجياً كل ناظر[3]

---

(1) ديوان الأخطل: ٢٢٠.

(2) ديوان الأخطل: ٣٥.

(3) ديوان الأخطل: ٢٨٦، والصراصر: الرياح الباردة، والمجر الجيش كثير العدد، ويسدر: لم يكد يبصر.

فلما سمع الجحاف ذلك غضب وجعل يجر مطرفه حمية وغضباً ، فقال عبد الملك للأخطل : ما أراك إلا قد جررت على قومك شراً طويلاً . ومع ذلك لم يسكت الأخطل بل أمعن في استهزائه بالجحاف وقتلى قيس كما يتضح في قوله :

شفي النفس قتلى من سليم وعامر ... بيوم بدت فيه نحوس الكواكب
تغاورهم فرسان تغلب بالقنا ... فولوا وخلوا عن بيوت الحبائب
ولاقى عمير حتفه في رماحنا ... وما أنت يا جحاف منها بهارب
أتعجزنا في بسطة الأرض كلها ... فتلك وبيت الله إحدى العجائب[1]

ومضى الجحاف حتى أتى قومه وافتعل كتباً على لسان عبد الملك بالولاية ، ثم حشا جدباً تراباً وقال : إن عبد الملك قد ولاني بلاد تغلب وهذه الجرب فيها الأموال فتأهبوا وانصرفوا معي ، فلما اشرف على بلاد بني تغلب نثر التراب وخرق الكتب ثم قال لهم : ما من ولاية ولكني غضبت لكم وأخبركم بقول الأخطل ـ فاثأروا لقومكم ، فانقضوا على التغلبيين عند جبل بالجزيرة يسمى البشر فأسرفوا في قتلهم ، ويقال أن عدد القتلى من تغلب بلغ ثلاثة وعشرين ألفاً ، وأشك في صحة هذا العدد الضخم ، إلا أنه يبين على كل حال مدى هول هذه المعركة ، وقد أسر الأخطل يومئذ وعليه عباءة ، ولما سئل قال لهم أنه عبد ، فخلوا بسبيله فخشي أن يعرف فرمى نفسه في جب من جبابهم ، فلم يزل فيه حتى انصرف القوم فنجا . وفي ذلك يقول ابن صفار .

لم تنج إلا بالتعبد نفسه ... لما تيقن أنهم قوم عدا
وتشابهت برق العباء عليهم ... فنجا ولو عرفوا عباءته هوى[2]

ولكنه وإن نجا بنفسه إلا أنه فقد ولده في هذه المعركة كما تقول الروايات[3] . وهكذا نجا من المعركة موقدها الذي طالما تغنى ببطولته وفخر

---

(١) ديوان الأخطل: ٢٧٨.

(٢) انظر: الأغاني: ١٢ : ٢٠١ والتعبد: ادعاء العبودية، وبرق مفردها أبرق وبرقاء وهو كل ما اجتمع فيه سواد وبياض.

(٣) المصدر نفسه ٣٥.

بشجاعته كما في قوله مثلاً :

ولو سئلت عني أمية خبرت	لها بأخ حامي الذمار نصور
إذا انقشعت عني صبابة معشر	شددت لأخرى محملي وزروري
وزار على النابين في الحرب لو به	أضرت لهر الحرب أي هرير
وليس أخوها بالسؤوم ولا الذي	إذا زينته كان غير صبور[1]

هذا البطل الذي يتوج نفسه بأكاليل العز هو نفسه الذي جبن عن القتال وجلب على قومه الدمار والعار بعد أن حاول واحد من أفراد قبيلته ـ وهو القطامي الشاعر ـ أن يكشف عن حقيقته للقوم فلم يفلح وضاع تحذيره هباء ويتضح ذلك في قوله :

أفهمتهم يوم جد البين بينهم	لو كان فيهم غداة البين من فهما
حلوا الرحوب وحل العز ساحتهم	يدعو أمية أو مروان والحكما
جر الخيول ابن ليلى وهي ساهمة	حتى أغرن مع الظلماء إذ ظلما
أولى لآل سليم أو أبي عمر	من ضربة تورث الأضغان والنقما[2]
إن الأخيطل ليس الدهر ثائرهم	أو يبعث الله عاداً أو ترى أرماً[3]
حلت بنو مالك والبحر دونهم	وذمم القوم في يوم اللقا جشماً[4]
فما يجوز أخوهم في مهولة	ولا يجد ذا ما مزمع أزماً
ودويل لا يكول المجد غايته	ولن يجد إذا شيطانه عزما[5]

وصدق القطامي في قوله فإن عزم الأخطل الذي شجع قبيلته وحمسها للقتال وأغرى بها اعداءها لم يكن إلا عزم شيطان شعره فحسب .

---

(١) ديوان الأخطل ٣٥ ويعني بالمحمل سيفه والزورو مفردها رز وهو حد السيف، والزاري العائب و : الهاربين من المعركة، وهر كره وزبيته

(٢) نقم الأمر أي اعوج.

(٣) ثائرهم: أي مدرك ثأره منهم.

(٤) بنو مالك بن بكر هم قوم القطامي، وبنو جشم بن بكر قوم الأخطل.

(٥) ديوان القطامي: ١٠١ والمهولة: المفزعة، وأزم بمعنى عض بالفم أو اشتد عليه القحط ودويل لقب أطلقه جرير على الأخطل ومعناه الخنزير أو ولده

ولدينا صورة أخرى عن هذه المعركة المهولة التي دارت ليلاً رسمها لنا جرير في قوله[1] :

بكى دوبل لا يرقىء الله دمعه إلا إنما يبكي من الذل دوبل
جزعت ابن ذات الفلس لما تداركت من الحرب أنياب عليك وكلكل
فإنك والجحاف يوم تحضه بذاك المكث والورد أعجل
فلما انشق ضوء الصبح حتى تعرفوا كراديس يهديهن ورد معجل
فقد قذفت من حرب قيس نساؤكم بأولادكم منها تمام ومعجل
ومقتولة صبراً ترى عند رجلها بقيراً وأخرى ذات بعل تولول
حضضت على القوم الذين تركتهم تعل الردينيات فيهم وتنهل
عقاب المنايا تستدير عليهم وشعث النواصي لجمهن تصلصل
بدجلة إن كروا فقيس وراءهم صفوفاً وإن راموا المخاضة أوحلوا
وما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ويمضي جرير في وصف هذه المأساة التي أبكت الاخطل فعلاً فقد دخل من ليلته مستغيثاً بعبد الملك وأنشده قوله :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكي والمعول
فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل
بنزوة لص بعد ما مر مصعب بأشعث لا يفلى ولا هو يغسل
أتاك به الجحاف ثم أمرته بجيرانكم عند البيوت تقتل
فإن لا تغيرها قريش بعدلها يكن عن قريش مستماز ومزحل
ونعرر أناساً عرة يكرهونها ونحيا كراماً أو نموت فنقتل[2]

وقد استجاب عبد الملك لشاعره فطلب الجحاف ، إلا أنه لحق ببلاد

---

(١) ديوان جرير: ٦٩ الفلس يعني به خاتم الجزية، والكراديس مفردها الكردوسة وهي القطعة من الخيل، وتمور: تجري، والأشكل بياض يضرب إلى الحمرة.

(٢) الأغاني: ١٢ : ٢٠٣ ومعنى من مصعب بأشعث: قتل مصعب على يد عبيد الله بن زياد لأنه قتل أخاه، وماز: انتقل من مكان لآخر.

الروم ولم يزل يتردد عليها حتى سكن غضب عبد الملك ، وكلمته القيسية في إن يؤمنه فقيل له انا والله ما نأمن منه على المسلمين أن يأتي بالروم ، فأمنه فلما قدم الجحاف على عبد الملك لقى الأخطل فقال له متشفياً :

أيا مالك هل لمتني إذ حضضتني ... على القتل أم هل لامني كل لائم
أبا مالك أني أطعتك في التي ... حضضت عليها فعل حران حازم
فأن تدعني أخرى أجبك بمثلها ... وإني لطب بالوغى جد عالم
ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنوفكم ... بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعى عميراً بسيفه ... إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم
فإن تطردوني وقد جرى ... بي الورد في دماء الاراقم
لدن ذر قرن الشمس حتى تلبست ... ظلاماً بركض المقربات الصلادم[1] .. الخ

ورأى عبد الملك أنه إن تركهم على حالهم فلن يستقر الأمر في الدولة ، فأمر ابنه الوليد فحمل الدماء التي كانت قبل ذلك بين قيس وتغلب ، وضمن الجحاف قتلى البشر وألزمه إياها عقوبة له ، فأدى الوليد الحمالات وأداها عن الجحاف الحجاج بن يوسف الثقفي ، وهكذا خمدت نار الحرب بسقوط دواعيها ، لا بالحمالات والديات ، وإنما بالقضاء على الحزب الزبيري ، فإن قيساً وهي نصيرته لم تجد بداً من كبت ثورتها بعد أن استقر الأمر للأمويين ، وانتفت محاربتهم تغلب على أنها خارجة عن طاعة الزبيري الذين كانوا ممثلين لهم في الجزيرة ، وفترت الدواعي من ناحية الأمويين أيضاً نتيجة لما تقدم ، فلم يجدوا بداً من حسم هذه الحرب التي تكون سبباً في جلب الشر على الدولة ، وبهذا انتهى دور تغلب الذي رسمه الأمويون لها ، فأبعدوها عنهم وقسوا في معاملتها بعد ذلك ، وذهبت استعطافات الأخطل لهم هباء ، بل إن الأخطل قد فقد منزلته بذهاب أهمية قبيلته بالنسبة للأمويين منذ أواخر عهد عبد الملك

---

(١) الأغاني ١٢ : ٢٠٢ ونقائض جرير والأخطل وديوان الأخطل: ٦٠ وأبو مالك كنية الأخطل، والحران شديد العطش، والطب: الخبير الحاذق، والأراقم مجموعة من قبائل تغلب فيهم جشم ومالك والحارث وعمرو وثعلبة ومعاوية، ولدن ظرف زمان ومكان بمعنى عند، والمقربات مفردها مقربة وهي الفرس الكريمة والصلادم مفردها صلدم وهو الشديد الحافر.

فكثيراً ما هجا زفر بن الحارث زعيم القيسية وحذر الأمويين منه وحرضهم عليه كما في قوله :

بني أمية إني ناصح لكم ... فلا يبيتن فيكم آمناً زفر
مفترشاً كافتراش الليث كلكله ... لوقعه كائن فيها له جزر

ولكن صيحاته ذهبت أدراج الرياح ، وأصبح زفر من المقربين إلى الخليفة[1] .

وهكذا انتهت الحرب بين القبيلتين إلا أن قلوب الأعراب ظلت مشتعلة بنار الحقد والرغبة المكتومة في الثأر ، وكانت تصرح بها بين حين وآخر ، مرة في صورة سلمية وأخرى في صورة بعيدة عن السلام ، ولكنها لم تكن تتعدى المناوشات الفردية ، ومثال الأولى ما كان بين الأخطل وزفر وذلك بعد أن صالح عبد الملك زفر والقيسية فقد أجلسه الخليفة معه على السرير ، فدخل عليه ابن ذي الكلاع فلما نظر إلى زفر وهو على سرير عبد الملك بكى فقال الخليفة له : ما يبكيك فقال : يا أمير المؤمنين وكيف لا أبكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك ، ثم هو معك على السرير وأنا على الأرض ، فقال عبد الملك إني لم أجلسه معي أن يكون أكرم علي منك ، ولكن لسانه لساني وحديثه يعجبني . فبلغت الأخطل وهو يشرب فقال أما والله لأقومن في ذلك مقاماً لم يقمه ابن ذي الكلاع ، ثم خرج حتى دخل على عبد الملك فلما ملأ عينه منه قال :

وكأس مثل عين الديك صرف ... تنسى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً ... بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لا شك فيها ... وأرخى من مآزره الفضولا

فقال له عبد الملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك ، إلا خطة في رأسك ؟ قال : أجل والله يا أمير المؤمنين حين تجلس عدو الله هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس .

---

(1) انظر الأغاني ٨: ٢٩٥.

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقبض عبد الملك رجله ثم ضرب بها صدر زفر فقلبه عن السرير وقال :أذهب الله حزازات تلك الصدور[1] . ولكنها لم تذهب تماماً فنحن نسمع عن إراقة دم بين قيس وتغلب في عصر المأمون بعد أن دار الزمن دورة كبيرة ، ولكنها قيم الاعراب التي لا تمحي إلا يعد أن يهجروا حياتهم الخشنة هجراً عنيفاً ، فينزعوا من قلوبهم القسوة التي تحن أبداً للدماء وتصرخ بالثارات .

ولو أننا نظرنا فيما خلفته لنا هذه الحرب القبلية العنيفة ، بين قيس وتغلب من تراث أدبي يتمثل في هذه الأشعار التي كان يتراشق بها شعراء الفريقين كتراشقهم بالسهام وتحاربهم بالسيوف ، وجدنا أن الشعراء الذين اشتركوا في الصراع ـ ممن حفظت لنا كتب التاريخ والأخبار أسماءهم ـ ليسوا كثيري العدد ، فهم لا يتجاوزون عشرة من الجانبين . وكان جرير يقف على رأس شعراء قيس ومعه زفر بن الحارث ونفيع بن صفار المحاربي وعمير بن الحباب والجحاف بن حكيم السلمي وتميم بن الحباب ، كما كان الأخطل يقف على رأس شعراء تغلب ومعه القطامي وجواس بن قعطل وشعيث (أو شعيب) بن مليل ، ولا شك أن قيساً كانت أوفر حظاً في الشعر من تغلب ، لا من ناحية الكثرة العددية ، ولكن من ناحية مستوى الشعراء أنفسهم ودرجة تحمسهم لقضيتهم التي يدافعون عنها ، ففي قيس نجد زفر بن الحارث وعمير بن الحباب والجحاف السلمى ، وهم يؤمنون ـ في تعصب ـ بقيس ، كما أنهم في الوقت ذاته شعراء ممتازون ، بينما لا نجد مع الأخطل في جانب تغلب شاعراً ممتازاً غير القطامي ، ولكن موقفه من الصراع بين قبيلته وقيس أشبه ما يكون بالموقف الحيادي الذي يخلو من الحماسة والعصبية القبلية ، وإذا كان القطامي التغلبي لا يتعصب لقبيلته ، فإننا نرى جريراً التميمي يتعصب لقيس ويدافع عنها بحرارة وصدق . وليس غريباً أن يقف جرير هذا الموقف ، وينصب نفسه لمهاجاة الأخطل ورد كيد تغلب ، فالسبب في ذلك لا يمكن أن يرجع إلى عداء شخصي كما حاول أبو الفرج

---

(١) انظر الأغاني ٨: ٢٩٦

الأصفهاني أن يصوره[1] ، إنما يرجع إلى نحلة جرير السياسية ، فقد مال مع الزبيريين ضد بني أمية ، وأبلغ دليل على ذلك أنه حين تولى بشر بن مروان حكم العراق بعد انقضاء أمر ابن الزبير أبعد جريراً عنه ودعا الشعراء إلى هجائه لشعوره بعدائه لبني أمية[2] . ولما كانت قيس قد وقفت إلى جانب الزبيريين ، لهذا لا نستغرب أن ينصب نفسه للدفاع عنها ضد الأخطل وبني تغلب ، وبسبب موقف جرير من قيس استطاع فيما بعد أن يتقرب إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ويتصل ببني أمية عن طريقه ، ويمحو ما بينه وبينها من جفوة بسبب هواه مع الزبيريين والقيسيين أعداء بني أمية .

ولا شك أن العداء بين قيس وتغلب الذي دعت إليه الظروف السياسية في ذلك العصر ـ كما سبق أن بينا ـ قد ترك لنا ديواناً خاصاً به هو نقائض جرير والأخطل الذي نشره الأب انطون صالحاني اليسوعي عن نسخة الآستانة وطبعه في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية عام ١٩٢٢ م . وهذا الديوان من رواية أبي تمام . ومع أن القصائد التي يتضمنها موجودة في ديواني جرير والأخطل ، إلا أن طبيعة النقائض نفسها تحتم جمعها في ديوان مُستقل لسببين : الأول أن القصيدة ونقيضتها ينبغي أن تكونا متواليتين ليمكن التمييز بينهما وليتضح وجه المقارنة والمفاضلة . فالشاعران في النقائض يلتزمان ـ في معظم الأحيان ـ وزناً واحداً وقافية واحدة ، وكأن صاحب النقيضة يريد أن يثبت تفوقه على صاحب القصيدة الأولى من حيث قدرته على الوزن والقافية وتمكنه من الناحية الفنية ، هذا إلى جانب أن صاحب النقيضة يرى نفسه ملزماً بتعقب معاني زميله ومحاولة دحضها والرد عليها .

أما السبب الثاني الذي يدعو إلى جمع النقائض في ديوان مستقل فهو يرجع أيضاً إلى طبيعة فن النقائض نفسها ، فهي عبارة عن ديوان لأيام العرب ووقائعهم وأخبارهم في الجاهلية والإسلام ، وهي مليئة باشارات تاريخية يصعب فهم القصيدة دون دراسة تفصيلية لهذه الإشارات ، وهذا كله لا يتسع له ديوان

---

(١) انظر الأغاني ١١: ٦١ وما بعدها.

(٢) انظر المصدر نفسه ٨: ٣١٥.

الشاعر ، وإنما يتسع له ديوان النقائض خاصة ، ولهذا نصب أبو عبيدة نفسه لشرح نقائض جرير والفرزدق ، كما قدم لنا أبو تمام شرحاً لنقائض جرير والأخطل وإن كانت صفة الشمول والاحاطة غالبة على أبي عبيدة بحكم طبيعته بوصفه راوية وصفة الاختصار غالبة على أبي تمام بحكم صنعته شاعراً يتذوق الشعر ولا يجهد نفسه وراء مصادره التاريخية .

ومع ذلك كتب أبو تمام مقدمة في حرب قيس وتغلب قبل أن يورد نقائض جرير والأخطل وعددها عشرون نقيضة . وأضاف ناشر الكتاب بعض الكتابات عن أيام قيس وتغلب ليفسر ما أعرض عنه أبو تمام في شرحه . والنقائض في هذا الديوان ليست كاملة ولا مرتبة ترتيباً تاريخياً بحسب الوقائع ، ولهذا حاولنا في بحثنا أن نرتب الوقائع ترتيباً تاريخياً وما صاحبها من شعر بقدر ما أسعفتنا المصادر .

وقبل أن تهيج الحرب بين قيس وتغلب كان هناك عداء مستمر بين قيس وكلب أنتج لنا بعض النقائض وخاصة بعد وقعة مرج راهط ، فنرى عروة بن خلاة الكلبي يفخر بقبيلته فيقول :

ويوم ترى الرايات فيه كأنها ... عوايف طير : مستدير وواقع
فمن يك قد لاقى من المرج غبطة ... فكان لقيس فيه خاص وجادع
فلن ينصب القيسي للناس راية ... من الدهر إلا وهو خزيان خاشع[1]

فأجابه زفر بن الحارث القيسي قائلاً :

فخرت ابن مخلاة الحمار بمشهد ... علاك به في المرج من لا تدافع
علاك به قوم كأنك وسطهم ... إذا الحرب شبت ثعلب متطالع
فإن تك نازعنا قريشاً فإنهم ... أخونا ومولانا الذين ننازع
فأي قبيلينا وأمك ما يكن ... لك الملك تتبعه وخدك ضارع[2]

---

(١) عافت الطير: استدارت على الشيء، والمستدير منه: الحائم. والجدع قطع الأنف أو الأذن أو غيرهما.

(٢) نقائض جرير والأخطل: ١٨، ١٩، والمتطالع الذي يظهر مرة ويختفي أخرى.

ونرى جواس بن قعطل الكلبي ـ الذي ناصر التغلبيين فيما بعد ـ يفخر بقبيلته ويمن على الأمويين قائلاً :

كم من أمير قبل مروان وابنه كشفنا غطاء الموت عنه فأبصرا
فلو كنت من قيس عيلان لم أجد فخارا ولم أعدل بأن انتصرا

وسرعان ما رد عليه معبد بن عمرو القيسي ليؤكد عزة قيس وجلدها في القتال ، فقال :

لقينا بني كلب بخيل مغيرة تثير عجاجاً بالسنابك اكدرا
فلما تلاقى القوم واختلف القنا وقارع أطراف الذكور السنورا
سموت إلى قوم ولم أبغ غيرهم فأحبوه عضب الشفرتين مذكرا
وجالدهم بالمرج منا أعزة يرون المنايا مكرمات ومفخرا[2]

ولما اشتركت تغلب في القتال إلى جانب الأمويين ضد قيس تحولت النقائض لتكون بين قيس وتغلب أو بين جرير والأخطل بصفة خاصة ـ كما رأينا في ثنايا البحث ـ ، ونستطيع أن نقرر أن النقائض التي كانت نتاج تلك المعارك بين القبيلتين ليست موجودة بأكملها في ديوان نقائض جرير والأخطل ، بدليل وجود شعر للأخطل في وقعة الحريش ، وهي من أولى المواقع بين الفريقين ، بينما لا نجد شعراً لأحد القيسيين في الرد عليه . ويرى أحد الباحثين أن أول مناقضة في حرب قيس وتغلب كانت بين الأخطل ونفيع بن صفار إذ قال الأخطل قصيدته :

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر ون كان خيانا عدى آخر الدهر

فرد عليه ابن صفار بقوله :

ألا حي هذا بالبنى إلى البشر وكيف تحييها على النأي والهجر[1]

---

(١) السنور: جملة السلاح أو الدروع خاصة.
(٢) انظر ـ تاريخ النقائض في الشعر العربي: ٣٦٦

ولكن هاتين القصيدتين قيلتا بعد وقعة الثرثار التي هزمت فيها قيس شر هزيمة ، فانطلق الأخطل يفخر بقبيلته تغلب في تلك القصيدة الرائية وفي قصائد أخرى ، لم يتضمنها ديوان النقائض ولا نظن أن القيسيين لم يردوا عليها جميعاً .

وأول ما يلقانا في ديوان نقائض جرير والأخطل قصيدة جرير التي مطلعها (حسبما وردت في ديوانه) :

بان الخليط غداة الجناب ... ولم تقض نفسك أوطارها

وهي التي يقول فيها :

وادعو الاله وتدعو الصليب ... وادعو قريشاً وانصارها

فلو اصبح الناس حرباً عدى ... لقيس وخندف ما ضارها

كفوا خزر تغلب نصر الرسول ... ونقض الأمور وامرارها[1]

وهي رد على قصيدة للأخطل من الواضح إنها فقدت ولم يبق منها إلا ثلاثة أبيات وهي قوله :

ولم أر ملحمة مثلها ... أقف لي أخبرك أخبارها

أمر على ثعلب جائع ... وأشبع للذئب إن زارها

تركنا البيوت لاعدائنا ... وعون النساء وابكارها

وهاتان القصيدتان ـ في الغالب ـ قيلتا بعد معركة الثرثار ، وهي ليست أولى المعارك بين قيس وتغلب مما يدل على عدم ترتيب النقائض في الديوان .

وفي موقعة البشر التي أوقعت فيها قيس بتغلب ، قال الأخطل قصيدته :

عفا واسط من آل رضوى فنبتل ... فمجتمع الحرين فالصبر أجمل

وفيها يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة ... إلى الله منها المشتكى والمعول

فألا تغيرها قريش بمثلها ... يكن عن قريش مستماز ومزحل

(١) الخزر تضييق الجفن لتحديد البصر، وهو كناية عن الخبث والعداوة.

وسرعان ما وجد جرير فرصة للرد على الأخطل فقال قصيدته :

أجدك لا يصحو الفؤاد المعلل ... وقد لاح من شيب عذار ومسحل[1]

وفيها يقول :

بكى دويل لا لا يرقىء الله دمعه ... إلا إنما يبكي من الذل دويل
جزعت ابن ذات الفلس لما تداركت ... من الحرب أنياب عليك وكلكل

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر في نقائض جرير والأخطل إننا نجد الأخطل دائماً هو البادىء الذي يستثير غضب قيس بفخره عليها ، ويستثير غضب جرير بهجائه ، أما جرير فهو دائماً في موقف المدافع الذي يرد غائلة الهجاء عن نفسه وعن قيس ، وهذا يتفق تماماً مع دوره في الدفاع عن تلك القبيلة ، فالأخطل يهجو قيساً وجريراً في قصيدته :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا

وفيها يقول ذاكراً يوم الشرعبية الذي كان لتغلب على قيس :

ولقد بكى الجحاف مما أوقعت ... بالشرعبية إذ رأى الاطفالا
وإذا نما للمجد فرعاً وائل ... واستجمع الوادي عليك فسالا
كنت القذى في موج أكدر مزبد ... قذف الآتي به فضل ضلالا

فيرد عليه جرير بقوله :

حي الغداة برامة الأطلالا ... رسما تحمل أهله فأحالا

وفيها يقول في بني تغلب :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ... وبجبرئيل وكذبوا ميكالا
لا تطلبن خئولة في تغلب ... فالزنج أكرم منهم أخوالا
والتغلبي إذا تنحنح للقرى ... حك استه وتمثل الأمثالا

---

(١) أجدك منصوب على المصدرية وهو يستحلفه قائلا : أبجد منك ، والمسحل جانب اللحية أو من أسفل العذار إلى مقدم اللحية.

ويعود الأخطل فيمدح عبد الملك بن مروان ويهجو جريرا وقيساً في قصيدته إذ يقول :

عتبتم علينا قيس عيلان كلكم ... وأي عدو لم نبته على عتب
لقد علمت تلك القبائل أننا ... مصاليت جذامون آخية الشغب[1]

فيجيبه جرير بقصيدته التي مطلعها :

أصاح اليس اليوم متنظري صحبي ... نحيي رسوم الحي من دارة الجأب

وفيها يقول :

لعلك يا خنزير تغلب فاخر ... إذا مضر منها تسامى بنو الحرب
إذا صدعت قيس وخندف بينها ... عصا الحرب ما أوضعت فيها مع الكرب
ستعلم ما يغني الصليب إذا غدت ... كتائب قيس كالمعبدة الجرب[2]

ويستثير الأخطل مرة أخرى غضب قيس وجرير بقصيدته التي مطلعها :

حي الظعائن إذ رحلن بكورا ... برويتين فقد رفعن خدورا

وفيها يعير قيساً بهزيمتها يوم الحشاك وقتل عمير بن الحباب ، فرد جرير عليه رداً عنيفاً بقصيدته التي مطلعها :

رحل الخليط فزايلوك بكورا ... وحسبت بينهم عليك يسيرا

وفيها يفتخر بنفسه وبمضر فيقول :

الضاربون على النصارى جزية ... وهدى لمن تبع الكتاب ونورا
الله فضلنا وأخزى تغلبا ... لن تستطيع لما قضى تغييرا
وإذا وطئتك يا اخيطل وطأة ... لم يرج عظمك بعدهن جبورا
أفبالصليب ومار سرجس تتقي ... شهباء ذات كتائب جمهورا[3]

وهكذا تمضي نقائض جرير والأخطل ، الأخطل يبدأ بالهجاء والعداء وجرير يرد عن نفسه وعن قيس . وقد يتبادر إلى الذهن أن مهمة جرير أسهل

---

(١) ديوان الأخطل: ٢٢، المصلت والمصلات: الماضي في الحوائج.
(٢) نقائض جرير والأخطل: ١٠٩، وأوضع: اذل نفسه. والمعبدة التي طليت بالقار.
(٣) نقائض جرير والأخطل: ١١٩.

من مهمة الأخطل لأن جريراً يلتزم المعاني والأفكار التي يثيرها الأخطل ليرد عليها ، ولكن الحقيقة أن مهمة جرير أصعب من ذلك بكثير ، فهو ملتزم حقاً الرد على ما يثيره الأخطل ولكنه مطالب بالتفوق عليه من الناحيتين الفنية والموضوعية على السواء ، وهو مضطر إلى التزام البحر والقافية اللذين يختارهما الأخطل ، فإذا فخر الأخطل بيوم كان لتغلب على قيس ، فلا بد أن يفخر جرير بيوم كان لقيس على تغلب ، ونلاحظ أن جريراً استخدم نصرانية الأخطل وبني تغلب استخداماً واسعاً في هجائه ، وهو يعلم حق العلم أن الأخطل لن يستطيع الرد عليه والمماحكة في ذلك وإلا هجا المسلمين جميعاً . ولسنا في مقام تحليل فن النقائض بصفة عامة ، أو فن جرير والأخطل في نقائضهما بصفة خاصة ، فما إلى ذلك قصدت في هذا البحث الذي حاولت فيه أن أتتبع صدى الصراع القبلي في الشعر الأموي ، وكيف كانت حروب قيس وتغلب ذات أثر في وجود تراث أدبي يسجل أحداثها ووقائعها . وغاية ما يقال في هذه النقائض التي دارت بين جرير والأخطل ، والتي كانت عنصراً في ذلك التراث الأدبي الذي أشرت إليه ، إنها تطور حقيقي في فن الهجاء يقوم على الالمام الواسع بتاريخ العرب وأيامها ومفاخرها ومثالبها ، وأنها تتصل بالشعر السياسي اتصالاً وثيقاً ، إذ كانت سياسة بني أمية من العناصر المهمة التي دار حولها الصراع في نقائض جرير والأخطل . وأنها قصائد موضوعية تهتم أولاً بالحيثيات وتقوم على روح الجدل والمناظرة ولذلك يعدها أحد الباحثين ثمرة للرقي العقلي الذي أحرزه الفكر العربي في عصر بني أمية ولأنها تأثرت تأثراً شديداً بالحركات الدينية والعقلية التي كانت سائدة في هذا العصر[1].

وإلى جانب ما وصلنا به النقائض أن نقرر أن لها جانباً فنياً أصيلاً إذ يلجأ الشاعر فيها إلى فنون من القول كالنسيب ووصف الديار والمديح والفخر ، ويقصرها على موضوع المناظرة في تعداد مفاخر قبيلته ومخازي القبيلة الأخرى ، وإذ صارت النقائض عبارة عن شعر تعليمي يتضمن أيام العرب ووقائعهم فحسب . وقد وصف الدكتور محمد حسين النقائض وصفاً موضوعياً فقال أن

---

(١) انظر التطور والتجديد في الشعر الأموي: ١٨٦، ١٩١.

الفن الهجائي فيها لم يبلغ حد الرفحة الخالدة ، وهي شعر بادي لا يستطيع القارىء أن يحس جماله إلا بعد أن يقاسي كثيراً من الملل والسأم ، وهي محدودة الغرض بحكم الظروف التي أحاطت بها ، كما أنها شعر شخصي محوره الفرد ، لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع[1] .

ولا يقتصر ما في النقائض من جانب فني على تعدد موضوعاتها ، وإنما يرتبط ذلك أساساً بالطبيعة الفنية لكل شاعر ، وبصنعته في التصوير ، واحساسه باللفظ ، وبراعته في صوغ المعنى . فالأخطل يعني بألفاظه عناية شديدة وتعجبه الجزالة والرصانة فيها ، ولا تنقصه براعة التصوير للايجاع في الهجاء كما في قوله :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار

ويعتمد على الجد الخالص في محاولة استثارة غضب جرير أو قيس ، فهو يلح في التذكير بالهزيمة ووصفها وصفاً عنيفاً ، والمبالغة في وصف قوة تغلب على الطريقة البدوية المألوفة .

أما جرير فيمتاز في فنه بالسلاسة والتدفق في سهولة ويسر ، والميل إلى الدعابة والسخرية كما في قوله :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الامثالا

ولجرير قدرة بارعة على التصوير الفني الدقيق ، كما نرى في البيت السابق ، وكما نرى قصيدته اللامية التي وصف بها معركة البشر وصفاً مؤثراً ، يستطيع القارىء أن يرى فيه المعركة على حقيقتها بكل فظائعها وأهوالها .

وإذا كانت نقائض جرير والفرزدق قد تناولت أياماً ووقائع تاريخية قديمة حدثت بين فرعي تميم اللذين ينتسب إليهما الشاعران ، فإن نقائض جرير والأخطل تميزت بأنها تناولت أوصافاً حية لمعارك حديثة صورها الشاعران بحماسة وصدق . ولهذا كانت هذه النقائض مستغنية إلى حد بعيد عن تناول

---

(١) الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام: ١٢٩.

الأعراض والحرمات التي كانت تخوض فيها نقائض جرير والفرزدق بصورة أساسية .

وهكذا قدر لحروب قيس وتغلب التي دفعت إليها العصبية القبلية والظروف السياسية أن تؤثر في شعر العصر الأموي وتخلف لنا تراثاً أدبياً أقل ما يوصف به أنه قطعة حية من تاريخنا الأدبي تحدث لمن يطالعها متعة عقلية وفنية معاً .

فهرست المصادر والمراجع

١ ـ الأساطير ـ الدكتور أحمد كمال زكي ـ نشر مكتبة الشباب ـ القاهرة ١٩٧٥.

٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر النمري القرطبي مطبعة حيدر آباد الدكن ١٣٣٦ هـ.

٣ ـ الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين المخضرمين ـ الخالديان ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٨.

٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ نشر المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ١٩٣٩ م.

٥ ـ الأصمعيات ـ عبد الملك بن قريب الأصمعي ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ نشر دار المعارف بمصر.

٦ ـ الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة.

٧ ـ الأمالي ـ أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ـ نشر دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٢٦ م.

٨ ـ أمالي المرتضى ـ الشريف أبو القاسم المرتضى . نشر مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٠٧ م.

٩ ـ البيان والتبيين ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ نشر مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ م.

١٠ ـ تاريخ الآداب العربية ـ كارلو نالينو ـ نشر دار المعارف بمصر.

١١ ـ تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعي ـ مطبعة الإستقامة ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.

١٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ جورجي زيدان ـ مطبعة الهلال بمصر ـ ١٩١١ م.

١٣ ـ تاريخ الأدب العربي ـ ريجيس بلاشير ـ ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني ـ بيروت.

١٤ ـ تاريخ الأدب العربي ـ كارل بوركلمن ـ الترجمة العربية ـ نشر دار المعارف بمصر.

١٥ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ المطبعة الحسينية المصرية.

١٦ ـ تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ـ نجيب محمد البهبيتي ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٠ م.

١٧ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي ـ نشر المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ـ ١٩٥٧ م.

١٨ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ الدكتور شكري فيصل ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ١٩٥٩ م.

١٩ ـ جمهرة أشعار العرب ـ أبو زيد القرشي ـ ط. المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ١٩٢٦ م.

٢٠ ـ الحيوان ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. نشر عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي القاهرة ـ ١٩٦٨ م.

٢١ ـ خزانة الأدب ـ عبد القادر البغدادي ـ نشر عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ م.

٢٣ ـ ديوان أبي الأسود الدؤلي ـ نشر عبد الكريم الدجيلي ـ شركة النشر والطباعة العراقية ـ بغداد ـ ١٩٥٤ م.

٢٤ ـ ديوان الأخطل ـ تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ١٨٩١ م.

٢٥ ـ ديوان الأعشى ـ تحقيق محمد محمد حسين ـ المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٦٩ م.

٢٦ ـ ديوان الأفوه الأودي ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ القاهرة ـ ١٩٤٧ م.

٢٧ ـ ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.

٢٨ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت ـ تحقيق عبد الحفيظ السطلي ـ دمشق.

٢٩ ـ ديوان أوس بن حجر ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م.

٣٠ ـ ديوان بشر بن أبي خازم ـ تحقيق عزة حسن ـ مطبوعات مديرية إحياء التراث العربي ـ دمشق ـ ١٩٦٠ م.

٣١ ـ ديوان جرير بن عطية ـ ط ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ هـ.

٣٢ ـ ديوان جميل بن معمر ـ تحقيق حسين نصار ـ مكتبة مصر ـ القاهرة.

٣٣ ـ ديوان الحادرة ـ نشر ناصر الدين الأسد ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٣ م.

٣٤ ـ ديوان حسان بن ثابت ـ تحقيق سيد حنفي حسنين ـ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٥ ـ ديوان الحطيئة ـ نشر نعمان أمين طه ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.

٣٦ ـ ديوان الحماسة ـ نشر المكتبة الأزهرية ـ القاهرة ـ ١٩٢٧ م.

٣٧ ـ ديوان حماسة البحتري ـ نشر كمال مصطفى ـ المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ـ ١٩٢٩ م.

٣٨ ـ ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ نشر دار الكتب المصرية ـ ١٩٥١ م.

٣٩ ـ ديوان ذي الرمة ـ نشر كارلايل مكارتني ـ كمبردج ـ ١٩١٩ م.

٤٠ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى ـ نشر دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٤٤ م.

٤١ ـ ديوان الشماخ بن ضرار ـ تحقيق صلاح الدين الهادي ـ نشر دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٨ م.

٤٢ ـ ديوان طرفة بن العبد ـ نشر مكس سلفسون ـ فرنسا ـ ١٩٠٠ م.

٤٣ ـ ديوان طفيل الغنوي ـ نشر محمد عبد القادر أحمد ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٦٨ م.

٤٤ ـ ديوان عبيد بن الأبرص ـ نشر حسين نصار ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.

٤٥ ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ بيروت.

٤٦ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي ـ نشر محمد جبار المعيبد ـ دار الجمهورية للنشر ـ بغداد ـ ١٩٦٥ م.

٤٧ ـ ديوان عروة بن أذينة ـ نشر يحيى الجبوري ـ مكتبة الأندلس ـ بغداد ـ ١٩٧٠ م.

٤٨ ـ ديوان عروة بن الورد ـ نشر عبد المعين الملوحي ـ دمشق

٤٩ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

٥٠ ـ ديوان عمرو بن قميئة ـ تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م.

٥١ ـ ديوان الفرزدق ـ المطبعة التجارية بمصر ١٩٣٦ م.

٥٢ ـ ديوان القطامي ـ ط. دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م.

٥٣ ـ ديوان قيس بن ذريح ـ تحقيق حسين نصار ـ نشر مكتبة مصر ـ ١٩٦٠ م.

٥٤ ـ ديوان كثير بن عبد الرحمن ـ نشر إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٧١ م.

٥٥ ـ ديوان كعب بن زهير ـ ط. دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٠ م.

٥٦ ـ ديوان لبيد بن ربيعة ـ تحقيق إحسان عباس ـ مطبعة الكويت ـ ١٩٦٤ م.

٥٧ ـ ديوان المتلمس الضبعي ـ تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ م.

٥٨ ـ ديوان النابغة الجعدي ـ نشر عبد العزيز رباح ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٩٦٤ م.

٥٩ ـ ديوان النابغة الذبياني ـ ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م.

٦٠ ـ ديوان نابغة بني شيبان ـ نشر دار الكتب المصرية ـ ١٩٣٢ م.

٦١ ـ ديوان الهذليين ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ ١٩٤٧ م.

٦٢ ـ السيرة النبوية ـ أبو محمد عبد الملك ابن هشام ـ نشر مصطفى السقا وآخرين ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ م.

٦٣ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩ م.

٦٤ ـ شرح القصائد العشر ـ يحيى بن علي التبريزي ـ المطبعة النيرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ م.

٦٥ ـ شرح نقائض جرير والفرزدق ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى ـ نشر بيفان ـ مطبعة بريل ـ ليدن ـ ١٩٠٥ م.

٦٦ ـ الشعر الجاهلي: قضاياه الفنية والموضوعية ـ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد ـ نشر مكتبة الشباب ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ م.

٦٧ ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ـ الدكتور يوسف خليف ـ دار المعارف بمصر.

٦٨ ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٣٤٦ هـ.

٦٩ ـ شعر الخوارج ـ تحقيق إحسان عباس ـ نشر دار الثقافة ـ بيروت.

٧٠ ـ طبقات ابن سعد ـ أبو عبد الله محمد بن سعد ـ نشر دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م.

٧١ ـ طبقات الشعراء المحدثين ـ عبد الله بن المعتز ـ نشر دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٦ م.

٧٢ ـ طبقات فحول الشعراء ـ محمد بن سلام الجمحي ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ م.

٧٣ ـ الطرائف الأدبية ـ عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٣٧ م.

٧٤ ـ العقد الفريد ـ أحمد بن محمد بن عبد ربه ـ نشر أحمد أمين وآخرين ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٩ م.

٧٥ ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده ـ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ـ نشر محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.

٧٩ ـ عيار الشعر ـ أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ـ تحقيق الدكتور طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ـ والدكتور ابراهيم عبد الرحمن ـ نشر مكتبة الشباب ـ القاهرة ١٩٧٧ م.

٧٨ ـ الكامل ـ ابن الأثير ـ ط. المطبعة المنيرية ـ القاهرة ـ ١٣٥٧ هـ.

٧٩ ـ نقائض جرير والأخطل ـ ط. المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ١٩٢٢ م.

٨٠ ـ مجموع أشعار العرب ـ تحقيق وليم آلورد ـ ليبزج ـ ١٩٠٣ م.

٨١ ـ مروج الذهب ـ المسعودي ـ ط ـ المطبعة البهية المصرية ـ ١٣٤٦ هـ.

٨٢ ـ مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٢ م.

٨٣ ـ معجم الشعراء ـ المرزباني ـ مكتبة القدس ـ القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ.

٨٤ ـ المفضليات ـ المفضل الضبي ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر.

٨٥ ـ نسب عدنان وقحطان ـ المبرد ـ ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.

٨٦ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ النويري ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٣٠ م.

٨٧ ـ وقعة صفين ـ نصر بن مزاحم ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ المؤسسة العربية الحديثة.

فهرس الموضوعات


Bibliotheca Alexandrina
0453688